

مجموعة قطبية

# جيوب الكفن

أحمد الشيخ



تصميم الغلاف

شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف  
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات  
دار المعارف

---

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

لمصر المستقبل... والناس

ولأرواح ضحايانا ممن كانوا يجلمون بالمستقبل

في ميادين التحرير، وقد سجلوا صفحة غير مسبوقه

في تاريخ الثورات

أحمد الشيخ



## مقدمة

من خلال الحلم وال المنام والكابوس والرؤيا وتفاصيل الواقع الصعب الذي عشناه تطمح هذه المجموعة أن تستكشف مفردات الواقع وتحاول تفسيرها، ومحاولات التواصل مع القارئ من خلال الوعي المشترك والكامن موروثا، إذ يسكن الخلايا ويتحول إلى لغة وأمثال وحواديت وحكم وروايات يتبادلها الناس، وهذه المجموعة تحاول أن تطرح لمن يقرأ تفاصيل مرحلة عشناها معا وتعايشنا معها قبولا أو رفضا، ولعلها تفاعلت مع مكابدات ومصاعب وتعويقات لأي رغبة لإضافة تبدو ممكنة، مسنودة على رصيد خبرات لورثة من أسهموا في تأسيس الحضارة الإنسانية في بداياتها ثم رسموها وكتبوها برديات تؤكد أنها كانت أول كتابة تحتوى على نصوص حدثتنا عن فلاح بسيط في مواجهة الفرعون، وتدور الأيام ويبقى هذا الشعب في مواجهة البرابرة القدامى الذين وفدوا واستباحوا ميراثه، ومثلما فعل بعض من ينتسبون لطين الأرض مع من

حكموهم وتحكموا فيهم وهم من نفس السلالة، لكن الكاتب  
المصرى القديم كان يتبدى أحيانا ويعرض ما يراه من خلال أقلام  
عشقت وطنها ولم تسع لتربح أو بيع رخيص. وظيفة الكاتب فى  
كل عصر هى البوح والسعى لتبسيط الحياة من خلال التواصل  
مع البشر. هى محاولات منشورة فى أهرام الجمعة وغيرها  
من الصحف والمجلات، لعلها تحوز بعض الاهتمام وتتجاوز مع  
المشاعر والعقول الواعية بمسارها فى التاريخ.

أحمد الشيخ

## جيوب الكفن

صامتا وتائها عن نفسي كنت أمشى بين الأكابر وكبار السن منهم، كان شباب العائلة يتابعوننا والصمت مهيمن عليهم دون أصوات، حتى الأنفاس لا تبوح بتعبيرات التقاطيع الساكنة التي تتابع خطواتنا وتوشك أن تحصيها بسلبية وحياد جامد غير مألوف، وأنا أنظر للوجه فتفر العينان وبالألسنة يطلبون الرحمة للراحل ولآله الصبر والسلوان على ما ابتلاهم به المولى، كان باب الدار مزحوما، وعندما لمحونا تباعدوا وافسحوا مدخلها أمامنا فدخلنا صحن الدار الضيق واللائق بضيقها المعروف غير المحتمل، رأيته راقدا على درابة الغسل عريانا إلا من قطعة قماش بفتة بيضاء تدارى عورته وبطنه وجزءا من صدره اقتربت منه فبدأ لي أنه ينظر ناحيتي ليطمئنني على صحوه ويحاول النطق معترضا على ما كان يدور حوله، واقتربت لأتسمع همهماتهم وتعليقاتهم التي كانت تتوالى وتطلب له ولبدنه الرحمة والغفران من الواحد القهار، ويطلبون من المولى أن يمنحني الصبر والقدرة على احتمال فقدانه ما دامت الدنيا فانية ولا دوام إلا للخالق، كنت أتأمله بلهفة وهو ساكن في مرقد، ومستسلما لإشاراتهم جلست فوق مقعد بجواره لألتقط أنفاسي من عناء السفر كما قالوا، وحاولت أن ألملم روحي على مهل، لكنني انتفضت واقفا

على نحو مفاجئ بحساباتهم وبدأت الصراخ فى وجوههم معبرا عن احتجاجى :

- مين اللى جابه يتغسل ويطلع من هنا ؟ دارنا اللى هى داره براح يا ناس- ولا هى ما بقتش داره ؟ ما بقتش داره ؟

تبادلوا النظرات ولم ينطق أيهم بكلمة . فعاودت السؤال بصوت أعلى ممرورا ، وبدلا من الرد أسمعونى عديدا ونعيقا وأصواتا تندبه أثناء تغسيل البدن اللين المطاوع بعكس بنيانه كما عرفته وألفته . ثم سكتوا . ومغلوبا على أمرى لذت بالصمت قبل أن انتفض لأترك المكان بعد نظرة وداع خاطفة ممرورة لبدنه ، ولا أعرف كيف توجهت ناحية باب الدار المفتوح وخرجت لأراه قبالتى يجلس مسنودا على جدار الزاوية ورأسه مدفوس ومخفى بين الركبتين بينما أقف قبالته لأسأله مستنكرا باستياء .

- مين إالى جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

رفع رأسه وفتح عينيه المسبلتين ليرانى ثم أعاده مدفوسا كما كان بين قبضتيه الملقوفتين حول ركبتيه ودون أن يكلف نفسه ردا . كنت أتفكر كيف ومن رتب له الغسل والتكفين والدفنة فى دار خاله؟ وقد تحمل وتحامل على نفسه وعاش غربة ممدودة . ثم يموت فى تلك الدار ويتم تغسيله وتكفينه قبل دفنه . هل رتبوا أيضا دفنه فى مدافن أخواله لتكتمل غربته بعد الموت أيضا؟ والأخ الأكبر فى نفس مكانه . وملوموا على نفسه بدا لى أنه يفر من مواجهتى . وهو يدفن رأسه بين الساقين والذراعين الملقوفتين حولهما . لم أتحكم فى نفسى فانحنيت وبقبضتى أفلحت فى فك الذراعين . بدا لى وكأنه يدارى غضبته ، ويحاول أن

يتخفف أمام الناس غرباء وأقارب، ولعله طاوعنى ساعتها لأتوهم أننى أجبرته على مواجهتى فأهدأ وأتخفف، ربما كان عزمى وانفعالى أقوى منه ومنى، لأنه رفع رأسه ليتأملنى بوجه مكفهر، وعاجزا عن الاحتمال كررت سؤالى:

- مين ؟ مين إالى جاب أبوك يتغسل ويطلع من هنا؟

- ما حدش جابه يا أستاذ. هو اللى جاب نفسه

- ما قدرتش تستحمله كام يوم ف الدار لحد ما ربنا يفتكره؟

استحملت أبوك كام يوم؟ استحملته كام يوم ف دارك؟

ومستضعفا بوهن وربما بصوت مفتعل رد على:

- خبر إيه يا أستاذ؟ دارى دا إيه؟ ما هى داره قبل ما تبقى دارى

ولاً دارك، سامعين يا جماعه الأستاذ بيقول إيه؟

تلفتوا لبعضهم البعض ثم غمغموا بكلام متداخل لم أتبينه بهدف التهذئة، بدا لى أنه اكتسب تعاطفهم فراحوا ينظرون ناحيتى بشيء من الارتباب غير المعلن. ثم يقوم متساندا بكفيه على الجدار خلفه ويمسح راحتيه فى صدره لجلابه ليواجهنى رأساً برأس، كانت عيناه تنضحان غلاً كامنا لم يستشعره أحد غيرى، وعيناه تلتمعان كأنما تعلنان انتصارهما على عيني التائهتين الباحثتين عن إجابات لأسئلة لم يطرحها هو على نفسه ولا طرحها عليه ولم يتمكن من الرد الشافى الكافى عنها، كان البدن الملفوف بسبع طاقات من القطن والكتان والحريير الطبيعى يخرج محمولا بين أياديهم وهم يتوجهون به ناحية النعش المركون بجوار جدار الزاوية ليوسدوه مرقده على مهل. يحملون النعش ويتحركون

داخليين به من باب الزاوية، بينما الأخ يعبر وقد أفسحوا له مساحة بينهم ليدخل، كان بعضهم يتراجع إلى الوراء ولم يكن لدى بديل غير التوجه إلى نفس المكان الذي أدخلوه منه. لأنه كان يسمح بدخول بينهم عن قناعة غير قابلة للنقاش، وفي الصلاة على روح الميت لم ألمح أمامي أو في الصف الذي وجدته واقفا فيه. وبعد الصلاة حملوا النعش على مهل وأخرجوه، وبأصواتهم كانوا يكبرون ويتزاحمون لإخراجه من باب الزاوية ثم أشاروا لي لأتقدمهم وأحمل الخشبة الأمامية اليمنى على كتفي الأيسر، ويحمل هو الخشبة اليسرى على كتفه الأيمن، وعندما رفعنا الجزء الأمامي رفعوا الجزء الخلفي في ذات الوقت تقريبا، وخطونا أولى خطواتنا في مشوار الوداع للأب الراحل، وكنت أسمع عبارات العزاء ولا أملك أن أرد عليها. والمشوار يبدو ممدودا ونحن نتحرك بالنعش الذي بدا لي خفيفا في بعض الأحيان إلى حد أنني كنت أتوهم أنه قد يطير بنا، أو يبدو ثقيلًا فوق إمكانياتي لمواصلة مشواري للمدفن. لكنني واصلت المشوار مدفوعا بقوة خفية جعلتني قادرا على احتمال ثقل النعش غير المتوقع، أو شعوري أنه سيرفعنا عن الأرض وتعلق في الفراغ. كان يلزم أن نواصل مشوارنا بخطواتنا المتوافقة والمتقاربة لتخطي منحنيات وتباديل اتجاهاتنا دون كلمة أو تفكير في طلب الراحة. وبرغم الجهد المبذول فوق الطاقة ودون التفاتة من أحدا للآخر ليرشده أو يسترشد به. وقد كان هناك بالقطع ميراث مشترك تسلل إلينا من جينات مشتركة. فمكنتنا من توجيه النعش كما نريد في المنحنيات. أو أن نبذل الاتجاهات دون كلمة أو نظرة أو سماع إرشاد منطوق. وخوفا من خلاف ينشب بيننا

ويستشعره من جاءوا لتأدية واجب العزاء من بدايته . بدا لهم أننا اتفقنا في كل شيء ، ومشوار الدفن الذى قطعناه رغم الصهد وضوء الشمس الحارق انتهى بسلام ، لكننا تحاملنا وصمدنا ولم نستجب لعرض من عروض الإجارة رغم أنها كانت مشروعة ومتابعة وصادقة فى قلقها علينا «أجرنى .. أبارك الله» لكن الوهن لم يتمكن منا قبل أن نضع مقدمة النعش أمام المقبرة، لا فرطنا فى الحامل ولا فى المحمول، وعندما أنزلناه تهاكنا فوق المصطبة البراح عن يمين المقبرة. كان عزام يطل من فتحة المدفن، وكنا نراه يشير لهم متعجلا أن يحملوا المرحوم على مهل ليتناوله ورأسه أمام البدن . وتسابقوا على إخراجه من النعش ثم حملوه والرأس أمامه . كان عزام بارعا فى مهنته بشهادة كل من تعامل معهم . ورفض أى مساعدة فى تأدية دوره . وصحيح أنه كان يسمح لحفيده عزام الصغير أن يدخل المقبرة ليؤنسه ويحادثه أو يسمع تمتماته فى أذن الميت بعبارات لا يسمعها أو يفسرها ولا يترجم كلماتها أحد ، وكان الشيخ معاطى يقرأ القرآن على روح الميت ويوصيه بأن يرد بكلمات مختصرة على أسئلة ملاك الموت الذى سيلقاه بعد أن ينسد باب المقبرة ، وعزام الصغير يخرج ويحمل الباب بين يديه وينتظر خروج عزام الكبير ليمد له يده ، يتناوله ويضعه فى مكانه ويحوظ أطرافه على مهل بالطمى الذى جهزه . وغطاه بالتبن وركنه عن يمين الفتحة قبل دخولها .

كنت أجزر القدمين تائها وأنا أهر رأسى غير مصدق أنني فقدته ، وعبارات قيلت لتواسينى فسمعتها وتاهت فى دهاليز الصخب أو تلاشت ، ولم يسكن القلب أو يشعر بالعزاء الذى نلته من الأهل والغرباء . لعلنى

شعرت بعدم القدرة على احتمال فراق الأب الذى تركنى «لجدتى لأب»  
تباعد عنى زمنا مطمئنا أننى سأرتاح وأضحك وهى تحكى حكاياتها.  
وتهددنى وتسحبنى من مكابدة حرمانى من الأم فى طفولتى المبكرة  
ومطالع صباى.



بدا لى فى الكابوس الكابيس على أنفاسى أن كفرننا «الخروبى» صار  
هدفا تتهدده قوى باغية لتقلب موازينه فأصبح «عالیه واطیه» يمشى على  
دماغه مستبدلا بالكفين حركة القدمين ويبدو مسنودا على شكل مسدس  
أو مربع من بلاستيك مقوى تحته أربع عجلات أو ست عجلات وفى  
وسطه مساحة غويطة على شكل طبق صاج يسمح باستتباب جمجمة  
بنى آدم متوسط البنية. يتحرك به الطبق بآلية وقدماه مرفوعتان لأعلى  
دونما اعتراض وقد صار هرما مقلوبا أو كائنا حيا متواطئا ضد نفسه  
بشكل مجانى يمكنه أن يرى أمامه من يطلبه حتى لو انقلب ميزانه.  
ولأنه فى الخفاء و العلى كان قد استجاب لخصومه من فرط رعبه بسبب  
اعتياده على طاعة الأقوياء. تناسى تاريخه وسعى للانفلات بفص مخه  
التحتانى غير المحسوب حسابه. وبعدها تحول إلى شبه آلة أو أراجوز  
يتحرك بشكل معكوس ليبيعث الفرحة فى قلوب خصومه القدامى وقد  
تصالح معهم وقبل شروطهم بلا خجل ليولد الحسرة فى قلوب العقلاء  
من ناسه على ما صار إليه حاله وحالهم فى ذات الوقت. ولعل البعض  
منهم صدقه أو توهم أنه سوف يصدقه لو تمكن من زراعة بذور البهجة  
فى قلوب من يحيطون به، أنصاف الأكابر والأصاغر من محدثى النعمة

من أمثاله فى ذات الوقت، لأنه وعدهم بأن يدعوهم ليسابقوه بالتتابع فوق مساحة الأرض الخالية والمستوية، وقد امتطى كل واحد منهم تحت فردتى حذائه زوج قباقيب «باتيناج» واثقا أنه سيحصل على جائزة مؤكدة عن كل شوط يلعب فيه الرجل الأحوال، يشعر بالتفوق على الدماغ المقلوب على مربع أو مسدس تحت طبق محمول فوق أربع أو ست عجلات يعجز دماغه المقلوب عن التحكم فيها مثلما تتحكم أقدامهم فى عجلاتهم التحتانية.

فى رؤية تالية من نفس الكابوس شفت رأس كفرنا الأرجوانى وقد صار مدكوكا وثابتا فى أعماق نفس الأرض لا يظهر منه شىء، كأنه جذع شجرة كافور لها فرعان متساويان، ووحيدان عاريان من كل ما يوحى باحتمال نمو الأغصان أو خضرة الأوراق مستقبلا، جفاف وثبات ساكن على السطح كما قد يتجلى لأى عابر سبيل محايد، وسوف يصعب عليه حالها وحالنا والكل يتأسى بمرارة على مصيرها ومصيرنا المعتم بعد أن صار الدماغ مدفونا ومعزولا عن كل ما يوحى بأنه كان موجودا ومشاركا وواعدا لناسه بتحقيق الأمنيات المشروعة أو حتى بعضها، متوعدا بتدمير كل من فكر فى تعطيله أو تعويقه.

ولأن كفرنا كان يبدو فى الأحلام متألقا ومبهرا و «أرجوانيا» أو متحذلقا وخاملا أو عطلانا أحيانا برغم كونه باقيا وساكننا فى نفس مكانه المختار منذ تأسيسه إثر حوارات ومداومات مضمينة لتلبية رغبة من دارت فى خيالاتهم أحلام وردية لم تتحقق برغم أنهم شافوا بنياتته كأنها حلم مشروع يخلق فى دوائر علوية تضعه فوق الأرض أساس راسخ ومشرق

لكفر مزدهر أعلى من كل الكفور المجاورة. وكل كفر مجاور يتعلل بأنه أقدم. ويحق له أن يطالب بحماية حقوقه في ملكيته الفكرية لأن العراقة وحدها لا تكفى ما لم يسع أصحابها لتحقيق الأمنيات المشروعة التي واصلت طوافها المتواصل بأخيلة من سكنوه قبل أن يتأسس على النحو المأمول ليكون كفرا «برقوقيا» يمتلك بنايات شامخة تتيه زهوا بما أنفق عليها من أموال الناس، وهى بنايات فى براح مفتوح حوله. براح يوحى بالتحقق والتألق ويعد بتحسين أحوال من أسسوه. وتنتفتح فى كل الأوقات مساحاته الرحبة وقاعاته المكيفة. ومرتاحون فوق مقاعدهم الوثيرة يتحاورون بحرية مطلقة فى كل ما يعن لهم، لأنه يخصهم إرثا شرعيا بجدرانه المتوددة، كانوا ينعمون بحمايته خلف أسوار وأبواب متعالية صلبة.

وكانوا يقولون لبعضهم البعض بعد أن دارت عليهم الدائرة عدة دورات. وعصفت بهم زواجع حملتها رياح الشمال الباغية على غير توقع من ناس كفرننا «المشمشى» الذى تلونت واجهته وانطمس ما كان الناس يحسبونه بريقا أزليا غير قابل للزوال. وربما أدركوا دلالات ما جرى وقالوا لبعضهم البعض بقليل من الحسرة أن البقاء لله وحده. أضاف المتفائلون منهم أن ما انكسر يمكن إصلاحه لو خلصت النوايا وصح العزم. سرت حول البنائيات أمنيات جديدة لا تقل عن تلك التى كانت تتراءى لمن نادوا فى السابق بتأسيس الدرب قبل أن يتجسد بناية غالية نالتها بعض الأضرار الهينة بحساباتهم، لكنه فى الناحية الأخرى من الساحة شديدة البراح كانت تتواتر أصوات قادرة على إزاحة الأمنيات

جانبا. وبأصوات تدعوا للإفافة من الأوهام والصحو بعد الغفلة لإضافة المزيد من الأحلام الممكنة. مضافا إليها أحلام مستحيلة التحقق، وكان البعض منهم يصرخ بعزم الصوت:

- أنتم فى عفوة خالصة. أنتم فى زمن الغفلة.

- تقاعستم عن أى فعل واستكنتم على الكراسى الوثيرة فى الداخل وتصامتم عن أصوات الزوابع وصرخات الحرس القديم قبل الحسرة على كفر أفلحتم فى تأسيسه لحمايتكم.

- إنه الطوفان العبى القادر على إزاحة البنايات العتيقة فأفيقوا.

لكن الصمت كان داخل البناية مطبقا، وصرخات التحذير بدت لبعض من يلوذون بالمكان مثل أجراس إنذار فى زمن السلم أو المسألة. مسألة لا لزوم لها وهم يتبسمون بينما يتصافحون مع كبار الزوار فى مواجهة الكاميرات وفلاشات التصوير الثابتة والمتحركة، وكان هو داخل الكابوس مرميا كجثة مدفونة فى ركام بناية منهارة بفعل زلزال بشع ومرعب ذكرنى باسم قرىتى الذى لم أتمكن من معرفة معناه أبدا، فقررت أن أريح نفسى من محاولات فهم المعنى رغم انتمائى له. أدفعه عن زمنى فرارا وأسنده إلى زمن الفراعين. وكثيرة هى القرى التى تتسمى بأسماء لم تتعرف على أصولها نتيجة التعجل أو الجهل أو عدم الرغبة فى مواصلة البحث والتمحيص فى دلالات الأسماء استنادا إلى مقولة أن الأسماء لا تعلل، والزلزال الذى هز أرضية مدينة «بم» الإيرانية يزود مواجعى ويذكرنى بقرىتى «بعم» التى هى - كما قلت لنفسى فى السابق- اسم فرعونى قديم لم أتمكن من ترجمته عن هيروغليفية

لم أتعلمها. وأسأل روجي : هل زحف الفراعين من الزمن القديم ودخلوا بلاد الفرس؟ أم أنهم حملوا اسم قريتي لفارس القديمة التي حكمتنا زمنا بعد الزمن الروماني، وربما اتخذت من قريتي قبل أن تتأسس مقرا لقائد عسكري متواضع. أو نصف حاكم أو حتى ربع مسئول.

وتبدى لي في الكابوس أن بغداد المنهارة التي زرتها وتسكعت في دروبها صاحيا ثم جلست على مقاهيها التي تتشابه إلى حد التطابق مع مقاهينا في القاهرة، وقد كانت تعشش في الدماغ نصف الواعي نصف التائه، وأصوات الخلق القتلى والأسرى تستجير بمن يستجير ويصرخ في كابوسه الخاص والعام:

- مقهى - مقهر - مقهى - مقهر - مقهى - مقهر - مقهر - جناس ناقص  
- جناس كامل - جناس - تجانس - تكانس - تجانس - تكانس  
- بم - بم.

كنت في الكابوس محاصرا على غير توقع بالشقيقين أحاول أن أتحاشى الضربات غير المتوقعة منهما، فأصرخ مستجيرا بوجه الأم لتصحو من غفوتها بعد الموت لتذكرهم بأننا أشقاء ولا يحق لهم قتلى بسلاحين غادرين، تذكرهم بوجع قلبي والصمامات الصناعية التي وضعوها مكان «الميتراي والأورطي» المنزوعين بعد فشلها في تمرير الدم بشكل مأمون حسبما قالوا، ولأن أمي لم تفعل شيئا لحمايتي غصبا عنها، فربما تخيلتني قتيلا لأخوين شقيقين. وأنا راقد إلى جوارها في نفس القبر، وتخيلتها ترمح وتفر من قبرها التائه الذي يصعب النيل منه وهو ينهار ويتلاشى ويندك تحت الأرض، وواثقا كنت أعرف أنه

كابوس مباغت سأصحو منه إن كان لى فى العمر بقية ، أسعى وأجاهد لأفر وأهرب من كابوس دموى ساكن فى اللاوعى ، وسعيا لفهم المستحيل أحاول فهم ما يدور حولى لتفسيره بعد الإفافة والخلاص رغم قلة العزم وضعف الحيلة.



كان الأب المروجع يئن بوهن ويعترض على فكرة الرجوع للكفر، وبإلحاح منا حاولنا إقناعه بأن وحدته بمدينة ليست له فيها قرابات ترعاه وتتابع حالته على النحو المطلوب مغامرة مجانية، ورغم أنه قال - وصدقناه - إن جيرانه الغرباء يتابعونه ويهونون عليه وحدته فتحاملنا على أنفسنا وانفعلنا وحاولنا إقناعه بالموافقة على الرجوع لبيته وبلده وناسه أو أن يشاركنى مسكنى واغترابى بالقاهرة فلم يوافق، ربما إشفاقا على حالتى، ولعله اختار الرجوع لكفرنا ليريحنى من حمل همه، وفى نهاية الأمر وافق على العودة ليريحنا ويرتاح، كنت فرحانا وأنا أصطحبه مع شقيقى الأكبر لدارنا البراح الموروثه من جدنا، طمانته بعد عقود من فقدان الأمان بوحدته واغترابه لسنوات متتابعة متتالية دون أن يفكر فى الرجوع ليقضى ما تبقى من عمره فى داره، وشعرت بالأمان المخلوط بالزهو لأننى صالحتهما وأعدت المياه إلى مجاريها الطبيعية والمألوفة.

فى نفس الليلة وبعد أن ودع كل من جاءوا للترحيب به فى بيته، تنهد وتأملنا سويا ثم دس يده اليمنى فى جيب جلاباه وأخرج حافظه نقوده، وضعها أمامه وتأمل وجهينا قبل أن يخرج لفافة الأوراق المالية منها ويعيد الحافظة الخالية لجيبه، تبادلنا النظرات ونحن نرى كل

هذه الأوراق المالية فى حوزته . أشار بيمينه إلى النقود التى وضعها فوق رخامة الترابيزة العتيقة لأسأل عن عمرها مستغربا صلابتها وقدرتها على حمل تلك الرخامة الزاهية والسميكة على نحو لم أر له مثيلا ، كان يهز رأسه هزا متتابعا قبل أن يقول لنفسه أو يقول لنا :

- دول القرشين اللى عرفت أدبهم فى الغربية .

تأملنا ملامحه باستغراب دون أن نعلق وتبادلنا النظرات ربما بحثا عن بداية لحوار يليق ، نظر إليه وواجهنى مستوضحا بصمته فتنحى صالح وهز دماغه قبل أن يعلق على ما سمعناه بلهجة المستور :

- خليفهم معاك يا آبا ، هو احنا لا سمح الله محتاجين حاجة من حد ؟ ما تقول له يا استاذ .

- لجل ما تشتروا الدوا اللى كتبه الحكيم ، وما تحتاروش يوم ما يحين الأجل ، أنا عايز أتكفن على حسابى يا صالح .

- ربنا يطول لنا ف عمرك ، دا انت كده بتشتمنا يا آبا . واحنا ولادك . يعنى ولاد الأصول ، الناس تقول علينا إيه ؟ اتكلم يا أستاذ ، انت موافق ع الكلام ده ؟ .

- قيل الأستاذ ما يتكلم يا صالح ، الناس ح تقول علينا إيه ؟

- خبر إيه يا آبا ؟ انت مش عارف الكلام اللى الخلق بتقوله علينا؟ ولو عملنا اللى انت بتقول عليه ح يقولوا إيه ؟ مش قادرين نشترك كفن؟ فضايحننا ح تبقى بجلاجل ، ساكت ليه يا أستاذ؟ .

- أقول إيه ؟ اللى أبوك عايزنا نعمله ، نعمله . بينا وبين بعض .

- هو فيه حاجة زى دى بتستخبي يا أستاذ؟

تحيرت ولم أتمكن من الرد، وساد صمت ثقيل قبل أن يواصل بلهجة مغايرة وعيناه على لفافة الأوراق المالية، قبل أن يرفعها متظاهرا بالاستهانة وهو يهزها بيده ويسأل:

- كام دول يا آبا؟

- ما بتعرفش تعد؟ ما بتعرفش، ولا عارف، وبتستهبل؟

- ح استهبل على إيه؟ الحكايه ما تستاهلش، ما تحضرنا يا أستاذ.

إحنا لا سمح الله ح نجدد اللي راح؟

- بلاش نجدده، بس عايزكوا تريحوا قلبي يا جماعة.

قالها بصوت محايد يتعارض مع ما كنا بدأناه حوارا يلزم أن ينتهي، وبآلية دس صالح رزمة الأوراق المالية فى جيب جلبابه، كان يهز رأسه بارتياح لا أدري إن كان بسبب ما صار فى حوزته من أموال الأب التى وضعها بجيبه، أو أنه كان دفئا يشعر به إنسان عندما يجد مبلغا لا يخصه على أرض خالية. هز أبى رأسه وتابع آمرا:

- مش تقسم الفلوس دى مع أخوك؟ أنا أخاف ربنا يحاسبني.

اقسمهم مع أخوك لجل أموت مرتاح. مش أحسن؟

تأمله بعينين معترضتين ومقيدتين بالحذر من الاندفاع على نحو يتعارض مع ما دار بيننا فى بيته الكائن وسط المدينة المجاورة لكنرنا فى آخر لقاء. وعلى نحو موجه أخرج الأوراق المالية ووضعها أمامه على السطح الرخامى العتيق لتراييزة المندرة الكبيرة فواصل أبى ما بدأه آمرا لصالح:

- اقسّمهم يا صالح وادى أخوك نصيبه ، واخللى معاك نصيبك ،  
 ح تعرف تعد ولا أعدهم لك ؟  
 - براحتك يا آبا ، عايز تعدهم عدّهم .  
 - اقسّمهم يا صالح ، اقسّمهم بالبركة .  
 انشغل صالح بعد الأوراق المالية واقتسمها نصفين ، وناولنى بيده  
 النصف الذى يخصنى ودى فى جيب سيالته ما يخصه .



اختليت بروحى فطاف بخيالى سؤال : هل خروج البدن من أى دار  
 بعد تغسيله وتكفينه يثبت الشراكة فى ملكيتها؟.  
 كان سؤالاً مروراً بلا جواب ، لكنه أعادنى لزمّن بعيد ... بعيد ،  
 ومحاصراً بسؤالى الذى لم أطرحه جاوبت نفسى أن مكان التغسيل  
 والتكفين لا يثبت أى ملكية ، واستعدت يوم سفرى وصالح يجاملنى  
 ويرافقنى ويوصلنى لمحطة القطار . بعد أن اقترحت عليه أن نشترى  
 لأب كفنا من حر ماله ، كان مغلوباً على أمره وعاجزاً عن الاعتراض  
 فسأيرنى وتشاركنا بجزء من ماله الذى اقتسمناه واشترينا كفنا من سبع  
 طاقات وبالتوصيف الذى قاله « لو مت تشتري لى كفن حرير سندسى  
 سبع طاقات ، شعرت أننى أوفيت بوعدى له لكن سؤالاً غيبى عن  
 الوعى وأخافنى أن يصيبنى الجنون أو الكراهية الكامنة :  
 - هل تغسيل البدن الميت وتكفينه فى أى بيت يثبت أنه شريك فى  
 ملكيته؟ وتهت وتحيرت .

كنت أرانى ظلا يتحسس طريقه - على مهل - لنهايته الجبرية .  
ولأنها جبرية لا يملك أى كائن حى أن يفر منها، فهونت على روحى  
الأمر واستعدت وجه أبى يوم حدثنى بثقة العارف إنه يتجه لسكة  
الرحيل عن دنيانا . اعترضت إشفاقا عليه وواتقا بأنه يصف حالته  
صادقا معى ومع نفسه ، لأن العبارات التى سمتعها لم تكن افتعالا  
ولأنه كان يستند على حقائق مؤكدة . فتحاملت ولم يسعبنى أحد ، لأن  
الخبطات كانت تخلف فى البدن المهدود مزيدا من الكدمات والجروح  
بآثارها الظاهرة والمخفية . ولأن خطواتى المتعثرة فى كل محاولة للفرار  
كانت تبوء بالفشل . أتحامل وأقول لروحي المحبوسة فى هذا البدن  
المكدود المنهك وقد أصابته من كل الزوايا خبطات نيران صديقة كما  
يقولون فى أجهزة إعلامهم الموجهه للضحايا بغرض التخويف ، أقول  
لروحي همسا خافتا «يلزم أن تصمد وتتحامل على روحك لتواصل دورك  
رغم المعوقات والحواجز المحطوبة فى كل الأركان» لكنها كانت روحا  
معاندة . تتسمع ولا يبدو عليها أى رغبة فى مواصلة المشوار المطوط ،  
وبخطواتها الفاعلة والمؤثرة فى سباق المسافات الطويلة ، السباق المفروض  
والفعل المحاصر والمحسور على الجهد الضائع هدرًا لأنه لم ينتج عنه  
أى إنجاز محسوس . أقول لروحي وأنتقدها ، حتى عدم حصولك على أى  
ثمار لتعويض روحك عن سعيك المتواصل بغرض الاسترخاء بعد الوصول  
إلى تباشير تلك الثمار التى بدت لروحك مستحيلًا تم تحقيقه لحسابك  
على النحو اللائق بمن سعى وظل يسعى ويبذل الجهد بكل طاقته وأكثر  
من طاقته . وقد كابدت بقدر المستطاع متخطيا حدود المستطاع لتحتمل

المكابدة المفترض أن يكون مردودها محسوسا وملموسا مادام ضروريا ومؤثرا ومشروعا في نفس الوقت. وطاف بالخيال حلما من اللازم أن يتحقق. كان منوطا بك أيامها أن تواصل السعى في الفراغ، وكان من الضروري أيامها أن تتجاهل من يحيطون بك وتبدو على ملامحهم حالات متفاوتة من الإشفاق الجواني عليك. ربما لأنهم كانوا يتوقعون انكسارك. ولم يكن من الممكن بحساباتك الوصول إلى توهان العقل الفاعل، أو التثبيت بتأدية الدور ما دمت تملك أدواته ولديك المخزون الساكن والقابل للتححرر في صور مرسومة بالخيال قبل أن تتحول إلى رسوم تلفت الأنظار، وهو يتحدث مع روحه ويزرع الأوهام حولها ليضيف جديدا كلما طافت روحه في البدن الثاني، وكم حاولت روحه أن تفر من مصيرها المحتوم. ولم يكن تفكيره في الفرار جبنا أو استسلاما، ولم يكن عجزا ولا ضعفا ولا تهاونا في الفعل بغرض التحقق، كنت أراه وهو يحاول أن يللم كل أطراف الحكايات التي تجرى أمامه ليسجلها ويدين فترة عاشها مكرها ومسلوبا ولم يحتج.



## صحة خلية حياة وحيدة

رأيتنى فى المنام المطوط أعتسل وأتطهر استعدادا لصلاة عيد الأضحى ، كنت فى المنام متشككا أن هناك عيداً أضحى فى تلك الأيام لكننى كنت أعتسل وأتوضأ وأهيبى نفسى لتأدية فرض صلاة العيد بينما أرى شمس النهار فى منتصف السماء تماماً بما يوحى بأن ظهيرة اليوم فاتت لتوها أو شارفت على الاقتراب، أتهياً لسماع صوت المؤذن القوى المتميز الذى ينادينا بصوته المجلجل فى صحونا أو منامنا خمس مرات كل يوم من غير مكبر للصوت لينبهنا لمواعيد الصلاة، كنت واثقا أنه مؤذن مظلوم فى حياته لأن صوته القوى الصافى واضح الحروف يستحق أن ينطلق من مكبر صوت محترم كجهاز التلفاز أو الإذاعة أو حتى من مسجد الحسين بن على أو السيدة زينب رضى الله عنهما وأرضاهما بدلا من تلك الزاوية المتواضعة الكائنة وسط المنطقة شبه العشوائية المعزولة التى نسكنها فى وسط المدينة، وفى البعيد من كل الزوايا كنت ألمح بنايات عالية وأتخيل ملامح أنصاف الأكابر أو الأكابر الغافين أو الغافلين عنا. فأتخيل صورة من كان فى السابق يؤذن فى مالطة رغم عدم استجابة سكانها لندائه لكنه يواصل مكتفيا بالقللة التى تستجيب وهم من غالبية ناس منطقتنا الودعاء وكأنما المساحات المسكونة حولنا من كافة النواحي لا تنشغل بدعواته وكأنه يؤذن لفقراء منطقتنا العشوائية وحدهم أو أن

للآخرين لغة غير لغتنا. وكنت أتصور أن بنياتهم الشامخة التي تحاصر منطقتنا شبه العشوائية هي التي تتشابه مع مالطة - التي لم تطأها قدمي أو فكرت مرة في زيارتها لضيق ذات اليد - وتقوم بدور بحر يحيط بجزيرة فقراء نعيش أو نتعايش في جنباتها لرعاية عيالنا ولا يحق لنا الشكاية من أصحاب ذلك البحر القادر على اغتصاب حدودنا حتى لو رموا علينا مخلفاتهم. يتأكد لي في الكابوس أن الدنيا حظوظ وأن وراء تلك القسمة غير العادلة حكمة تجل عن إدراك أمثالنا من البشر الساخطين أو الباحثين عن عدل مطلق لم يتحقق على سطح أرضنا الظالم أهلها وناسها في الصحو أو في المنام أبدا. كأنه من المنوع أن يعترض أى واحد منا على أنواع الغبن والأذى أو حتى عن القيام بردود أفعال متواضعة تشبه من حيث الشكل الاحتجاج على من يستبدون بنا مثلا أو يستبيحون بيوتنا بينما يعيشون حولنا ليضيقوا علينا الخناق يوما في إثر يوم. وكنا نعرف أن الكلام في الفراغ أهون من فعل اليد القادرة على التغيير وأفضل من الخرس والكتمان في القلوب بديلا عن القول. وفي بعض حالات الصحو كنت أراني مثله تماما على نحو غامض أؤذن في مالطة التي صارت تخصني وأراها وهي تحاصرني وتحصرني ولا يفصلها عني غير فاصل وهمي. صحيح أن منطقتنا شبه العشوائية المعزولة في بطن تلك المدينة كانت تتكلم نفس اللغة التي ينطقون بها أو يقرؤونها وأن التواصل بيننا وبينهم كان ممكنا لو فكروا في الانشغال بمواجعنا وهمومنا. لكنهم كانوا يتجاهلوننا بأوامر صدرت لهم في السابق من آبائهم ليتعاموا عنا بقصد، وعندما غامرنا بالذهاب إليهم عدة مرات

لنحاورهم فى احتمال أن تصيبهم أضرار قد تفرزها جرائم أو أوبئة  
متململة تتخلق أو تتوالد فى البؤرة المهملة لوبقى الحال على ما هو  
عليه. أبعدوننا وأعادونا إلى حيث نعيش. وصرت مثل غيرى ممنوعا  
بشكل غير رسمى ولكنه متممد، لا أتمكن من الوصول لعقول المحكومين  
من ناسهم بفعل مجموعة الفعلة لأصير مثل مؤذنا المغبون الذى يتصامم  
الناس عن سماع صوته فى المحيط الذى يلتف حولنا ويضيق حدودنا  
لصالحه، وكنت أحيانا أمتع نفسى من الاسترسال فى التفكير على هذا  
النحو حتى لا أصاب بالجنون أو تداهمنى سكتة قلبية مثل تلك التى  
داهمت الآلاف من الناس فى منطقتنا العشوائية المدفونة فى قلب المدينة  
وقد تدنت متوسطات أعمار سكاننا عن نصف متوسطات أعمار سكانهم  
هناك.

لعل الهمّ الأكبر الذى انشغل به هؤلاء الذين رحمهم المولى من  
شركائى فى منطقتنا هو سؤالهم المتكرر لذويهم قبل الموت عن المدافن  
التي سوف يوسدون فيها أبدانهم، كلنا كنا نعرف أن المنطقة الضحلة  
التي تجمعتنا كانت معزولة مهملة وغير محسوب لها حسابات. صحيح  
أنها فى البدايات تمددت وتوسعت وللمت الآلاف وآلاف الآلاف،  
لكن أرضها ضاقت وصارت هشّة ومعجونة بالنشع دوما بسبب زحف  
المخلفات الظاهرة والمخفية من تلك المساحات المحيطة بها ودون مراعاة  
أو رادع أو حقوق جيران لهم شفعة، وكانت المحصلة فى نهاية الألفية  
الثانية مؤسفة ويصعب التنبؤ بما يمكن أن يصير إليه حالها فى مستقبل  
الأيام.

رأيت الناس - فى الكابوس الناعم البدايات شبيهه الحلم المطوط- يتحاورون فى مشكلة فرعية صارت تؤرق الكثيرين من سكان تلك المنطقة العشوائية ووصل الأمر إلى حد أنهم صاروا يتأففون ويعبرون عن سخطهم بجرأة لو انفتحت سيرة النهايات المحتومة بدفن الأبدان وسط رماد مشبع بمياه جوفية يتحول أمام العيون لطين طرى لا تجففه شمس الله الساطعة التى تكوى أجسامهم طوال أعمارهم فتنسب أبدانهم بعرق الشقاء المالح الذى يضاف إلى مخلفات المدينة التى تحاصرهم من كل الجوانب. بعضهم كان يسخر من المفارقة ما بين سخونة سطح الأرض وطراوة باطنها قائلين إن البنى آدم مخلوق من طين الأرض وإليها يعود ليرحمه الله من ناره الأقوى آلاف المرات من نار شمس، لكن المقارنة فى واقع الأمر كانت غير مبلوعة للناس. ربما لأن نار الشمس الحامية تتشابه ولو من بعيد مع الجحيم الذى خصه المولى تبارك فى سماه للعاصين من عباده. لكن الطين لا يشبه الجنة الموعودة على أى نحو. كانت دعاية سخيفة ومتداولة سرت بيننا، وكنا نقر ونعترف أنها حالة استسلام ناتج عن العجز حتى عن الحلم فى اختيار مدافن جافة تحمى الأبدان والأكفنة من وساخة الطين التى تسهم بالقطع فى غزو الأنوف بروائح الموت الساحر فى كل الأنحاء يسرى فى الدروب والحوارى المسدودة والمنعطفات والأزقة على العكس مما يحدث هناك فى مدافن المدينة التى تحاصرنا بجدار وهمى عازل والتى ينعم فيها أمواتهم بجفاف الصحراء، عيثا كنا نحاول استخدام تلك المقابر لكن أكابر المدينة والمسئولين عنها كانوا يطالبون برسوم باهظة لعبور النفر منا ثوارعها

للمشاركة فى مشهد الدفن لم تكن فى حوزة أغلبيتنا بالإضافة لتكاليف يتكبدها الراغب فى بناية أى مدفن تباع أرضه الغالية بالتر المربع فى فراغ صحرائهم. وكانت المحصلة بالنسبة لسكان منطقتنا هماً خالصاً نتعايش فيه ومعه ويصعب الخلاص منه إلا بمعجزة أو الاستسلام التام للدفن فى الطين.



فى الكابوس البغيض رأيتنى ممدداً على «درابة» الغسل أستشعر دفء الماء الذى ينصب على بدنى «بكوز» نحاس أعرفه تماماً وأعرف أنه كان يخص أمى رحمها المولى وكانت تستخدمه لسقايتى لو بحت لها بعطشي، وكثيراً ما كانت تسألنى إن كنت أشعر بالعطش فأكتشف أننى بالفعل أرغب فى شرب ماء كوزها الرطب فأرتوى كما كان دفء الماء المصبوب من نفس الكوز على بدنى العريان ينعشنى عندما تصبه المرحومة أمى على رأسى وتدغدغنى بأصابعها الطرية والحنونة قبل أن تملأه مرة أخرى وتصبه على بدنى فى سنوات طفولتى المبكرة فأضحك وتضحك هى أكثر عندما أعلق بها فتحتوينى فى حضنها الدافئ وتجفف بدنى المبلول بثوبها الجاف قبل استخدام المنشفة. لكننى فى الكابوس المملوط لم أكن بقادر على الحركة أبداً أو الضحك أو التنفس فى ذات الوقت، كل ما كنت أشعر به هو أننى قادر على سماع أصوات متداخلة أعجز عن التمييز بينها كلما زاد الصخب. أقول لروحي بينى وبين روحى إنه الموت وقد جاء فى موعده المكتوب بالقطع دون أن أحسب له أى حساب شأن كافة سكان المنطقة العشوائية الذين سبقونى بالرحيل ليرتاحوا من

هموم الدنيا ولينعم الصالح منهم «بجنة عرضها عرض السماوات والأرض أعدت للمتقين» وأنا بالقطع منهم. كنت أتمنى لو سمعت صوت المؤذن ينادينا للصلاة فلربما يساعدنى صوته على الصحو مرة أخرى لكنه لم يفعل رغم أن الوقت بحساباتى طال وطال وبدنى الممدد فوق «درابة» الغسل مستكينا ومستسلما لكفين خشنين لرجل لم أعرفه فى حياتى أبدا لكن صوته لم يكن غريبا عنى، كان يتنحج قبل أن يأمر مساعده ليساعده برفع ساقى أو ذراعى أو رأسى ليخلص من مهمة بدت له أصعب من كل المهمات التى أنجزها فى حياته مغسلا لا يضمن لزبائنه الجنة، ولعله تهيأ لى أنه كان صوت مؤذنا وقد وظف نفسه مغسلا ثم لحادا تسكن يداه أبدان التعماء فى المدافن الرطبة الموحلة، وعندما لفلبنى هو «بطاقات» الكفن سمح لهم بأن يحملونى إلى مدافننا الرطبة فحملونى. كنت أرى الدفن المفتوح أمامى مثل فم أفعى ضخم جاهز لابتلاعى. لكن الرجل لم يتركنى أواجه الرعب وحدى وصار يوصينى ويميلينى كيف أرد على عزرائيل وأعوانه من ملائكة الموت عن يمينى وعن يسارى كلما سألونى ليتأكد لهم إيمانى فتأكد لى أنه هو بعينه المؤذن المغبون ساكن منطقتنا العشوائية.



فى الكابوس المطووظ والمتجهم كنت أشعر أن أنفى وفمى وخلايا جسمى نفسها كانت مكرهة على ابتلاع الطين الرطب من كافة الزوايا رغم أن ملائكة اليمين بشرونى بالجنة فشعرت بالنشوة للحظات خاطفة وتذكرت دغدغات أصابع أمى الحنونة وهى تحتوينى فى صدرها بعد

الاستحمام بمائها الدافئ، لكن الفرحة لم تكتمل أبداً لأن مكونات المدفن كانت تتداعى وتتداعى وتحاصرني وتحصرني وكأنها مكلفة بإزهاق الروح التي أزهقت منذ ساعات. ولو كان بإمكانى أن أصرخ ما ترددت، وب نصف الوعي أو ربه أو هامشه الباقي كنت أسأل نفسي كيف يموت الإنسان في اليوم الواحد مرتين؟



لا بد أن بقايا الخلايا الحية في بدنى كانت تستعيد رغم ضراوة الكابوس الممطوط ما كان قد جرى لي في السابق عندما كنت أنعم بالحياة وأتعايش رغم العسر مع مفردات الواقع الصعب. ولا بد أن الخلايا الحية الباقية في الكابوس كانت تخصني وتعرف أسرارى ومواجعى وتاريخى الذى انقضى وأسماء عيالى وزوجتى وخسائرى ومكاسبى وبعض أحلامى وأمنياتى المشروعة التى لم تتحقق أبداً وتلك التى بدا لي أنها تحققت ولو بشكل جزئى كان يكفينى أيامها وبيعث في القلب شيئاً من الفرح. صحيح أن أيام الفرح كانت قليلة لكنها كانت تكفينى على كل حال لمواصلة مشاويرى باعتبارى ساكناً بالربع العشوائى يستجيب لمشايخ المنطقة المهمشة عندما يؤكدون لنا أن «القناعة كنز لا يفنى».

كنت أفتقد ملامح زوجتى أم عيالى وصوتها المألوف خلال تلك الفترة الحرجة التى أوشتكت أن أنعزل خلالها تقريبا عن الإحساس أو العجز التام عن الحركة بما أوحى لكل من شافونى بأن أجلى انقضى، أتحمس بالأذنين نبرات صوتها الملتاع بين الأصوات فلا أتسمعها، أتذكر أنها كانت قد اتفقت معى على شراء أرض لبناء مدفن جاف بين مدافن تلك

المدينة التي تحاصرنا فتطمئننى فى كل مرة بأنها ستدبر أمورها على أحسن وجه إذا انقضى أجلى أو جاء يومى قبل يومها وتؤكد قائلة باقتضاب :

- ومن حر مالك أشتري لك وباسمك مقبرة صحراوية هناك .

أسألها أحيانا عن كم المدخرات التي تمكنت من توفيرها خلال السنوات الفائتة فتبتسم وتهمز رأسها بما يفيد بعدم رغبتها فى البوح . من ناحيتى كنت أتقبل المسألة واثقا أنها سوف تدبر أمرها وأمرى وتفاجئنى بأنها اشترت الأرض يوما بمبالغ كانت بحساباتى واعترافاتها فروقا بين ما كنت أدفعه لها مصاريف بيت وعيال فى مدارس وإيجار مسكن وأثمان ثياب لها ولنا وما أنفقته بالفعل :

- خيرك الكثير فى ذمتى ليوم الدين ومن أمنك لا تخونه فلا تحاسبنى .

ببنى وبينك ربنا المطلع على ما تخفى الصدور .

كانت هى بالنسبة لى مأمونة إلى حد أننى لم أفكر مرة فى أن أخفى عنها أى مبالغ أحصل عليها من عملى أو بدلات سهري أو مكافآتى عن الأعمال الإضافية التي أجهد نفسى لإنجازها لتكفيننا وتسترنا وتغضى مطالب الحياة وختامها بما يليق بنا . تظهر مودتها لى وتدعو مولانا الكريم بأن يزود أرزاقنا ويحزن علينا قلوب كل المسئولين فأفرح وأسر لها أن علاوة استثنائية سوف تضاف لمرتبى أول السنة المالية الجديدة . ألاحظ فرحة تقاطيعها الدقيقة وأقول لنفسى إنها وفيه قطعاً وراضية بالمقسوم لها معى . أواصل حياتى مطمئنا فى حضانها الدافئ وأمنى نفسى بأن يكون مأواى - عندما ينتهى عمري مدفنا - جافا كسكان

مدينتنا المحاطة بصحراء مترامية والتي نتعايش فى قلبها العشوائى  
مكرهين أو عاجزين بالفعل عن تبديل مساكننا شبه المدفونة ببطن المدينة  
الرطب والمشبع بكل أنواع النفايات والمخلفات دون أن يكون لنا حتى  
حق الحلم فى تبديلها أو تعديلها. وعزاؤنا حكمة تقول إن عرض الدنيا  
زائل وإن العبرة فى الختام المحتوم. ومحظوظ محظوظ من يقنع بأقل  
القليل ويرضى به فيكون مصيره المؤكد هو نعيم الآخرة وخلود الروح وسط  
«جنات تجرى من تحتها الأنهار».

لكن ما جرى لى فى تلك الرحلة غير المتوقعة جعلنى أراجع حساباتى  
فى الوقت الضائع كما يقولون بينما كتل الطمى تحيط ببدنى وتكبس  
عليه وتنفذ من فتحتى الأذنين والعينين والأنف ذى النخارين والشم  
أيضا، أجاهد أن أتململ فلا أستطيع ويتأكد لى أننى بدأت مشوار  
التحلل أسرع مما كنت أتوقع فى أعتى كابوس صادفته فى حياتى،  
وصحيح أن عمري الذى عشته كان مشحونا بكل ألوان الكوابيس المتتابعة  
المكررة التى أعجز أحيانا عن لمة تفاصيلها أو بعض تفاصيلها فى أى  
صحة فزع للفرار منها. لكن الصحو المفزوع نفسه كان مخرجا ومهربا  
بالنسبة لى أحيانا، ربما لأننى كنت أتمكن من تحسس بدنى أو القدرة  
على تجفيف دمع العينين الباكيتين من قسوة ما شاهدت واستشعرت،  
لعل بقايا الخلايا الحية التى تخصنى فى الكابوس تأكدت أن العودة  
للحياة مستحيلة فاختارت السكون الكامل استسلاما ممقوتا بحساباتها  
هى نفسها، لكنه لم يكن لديها اختيارات بديلة بالقطع. وعلى نحو  
خاطف تشددت خلية حية واحدة واتخذت موقفا مغايرا فظلت صاحبة

ترقب وتحصى وتحاول أن تصل إلى موقع أفضل كى تتاح لها الفرصة من خلال عزمها المتواضع لعمل معجزة لا يتوقعها البدن كله وقد حاصرته من كل الجهات كتل الطين اللزج، ولا أدرى كيف تمكنت تلك الخلية الوحيدة من هزيمة الاستسلام الكامل أو كسر حالة السكون المقيت، وكانت المحصلة صحة مفزوعة للبدن المحيوس فى الكابوس المطوط تعيد ربطه بالحياة وتنفض عنه علامات الموت ليعيش من أول وجديد، يفكر فى الخلاص من كل ما شافه من الجمود فى سكون بلا أمل فى الحركة أو القيام. يعود النبض للقلب وتصحو الذاكرة ويفيق الدماغ فأقوم وأتحرك لأؤكد لروحي أنني عدت للحياة مرة أخرى وتخلصت من الكوابيس المجانية مهلاً بفرح طاغ وصارخاً لنفسي ولمن يحيطوننى بأننى سأواصل الحياة مرة أخرى وأعيش.



فى المنام الوردى رأيتنى أميز ألوان الطيف والألوان المتداخلة بينها. آلاف الألوان تتجلى لى وأنا فوق ربوة مزروعة بنباتات نادرة ومألوفة وثمارها دانية القطوف. أسكن فوق مقعدى واثقا أنه من الممكن أن أنال ما أبتغيه بأقل جهد متاح، تنتفى تلك المشاعر البغيضة التى كانت تداهمنى فى الكوابيس المتواترة التى كابدت من ضراوتها، وأسأل نفسى كيف نجوت وظللت صاحيا لأشهد وجها مغايرا للحياة يتأجج فيه الأمل العريض فى الصدور وأنسى مواجع قلبى وصماماته الصناعية المزروعة إلى حد أننى تشككت فى وجودها وكأنها لم تكن أبداً. أرمح فى البراح المزروع بالخضرة بكل درجاتها وأتحول إلى نسمة بارعة فى

النفاز لكل الزوايا والأركان بمثل ما هي بارعة في الصعود إلى الفضاء الأعلى أو الغوص في الأعماق السحيقة دونما هيبة أو قلق، تزيد دهشتي لأن سر هذا التحول كان بفعل خلية وحييدة معاندة، أسمع صوت المؤذن ينادى للصلاة فأفرح لأنه نفس الصوت المؤلف الذى لا بد أنه كان يتمكن من تجميع المؤمنين من كافة أنحاء المدينة البراح وقد توارت فيها الحدود بين ما كنا نحسبه منطقة عشوائية قديمة ومعزولة بتعسف مفتعل برغم كونها تقع فى قلب المدينة أو صرتها. أصعد لمسكنى فالتقى بعيالى وأرى فى عيونهم فرحة اللقاء بعد الغياب ويتأكد لى أننى غبت بالفعل زمنا لا يستهان به، يتبدى لى أن أعمارهم تضاعفت على نحو لم أكن أتوقعه، لكنهم نفس عيالى وقد تخطوا مراحل الشباب وتحولوا إلى رجال ونساء مسئولين ولهم وجهة اجتماعية ظاهرة. أفرح بهم وأوشك أن أطير حولهم قبل أن أسألهم عن أهم فيطرقون برؤوسهم ويغلف الصمت تقاطيعهم، أتوه وأغير الموضوع وأسألهم عن أحوالهم فينفتحون ويتحدثون بتباه عن معجزة خلية وحييدة خالدة تسببت فى صحوة قلب مدينة خاملة وأعادتها كما كانت فى البؤرة نظيفة وواعية بدورها الخلاق فأتعجب لأنهم عرفوا سرا حسبته يخصنى وحدى وأتخيلنى روحا من عالم غير عالمهم وزمنا غير زمانهم تتجلى لها أحلام وردية لم تتحقق إلا بعد التضحية بالعمر نفسه.

## طلوع روح صباح العيد

كان قد ارتاح من مواجهه تقريبا أو بدا له ذلك فقال لروحه بينه وبين روحه : يحق لك يا ولد أن تفرح «وتزيط» مثلما يفعل العيال. اعتاد أن يفى بكامل حرите بنذوره التي قطعها على روحه بعد نجاته من الكوابيس خلال السنوات الخمس الأخيرة. أقبل على الحياة مرة أخرى وتجدد. تخلص من عاداته الشريرة التي سكنت عقله زمنا ودفعت له ليعترض على العلاقات الزائفة بحساباته ويتخطى حدوده أحيانا بانتقاد كل ما حوله بلا موارد.

أيامها كانت الأشياء والناس والبنيات واللغة تتبدل من حوله بإيقاعات أسرع من قدرته على ملاحقتها ومسايرتها حتى لو أراد، ولأن ردود أفعاله كانت حادة فقد صار متهما باستعداده لمعاركة الناموسة إذا حامت حول دماغه أو زنت قرب أذنه. تزايدت وحدته وخسر صداقات وعلاقات وأقارب من إخوة وأخوات مرورا بأولاد العم والخال وفروع عائلة ينتسب إليها بحكم الميراث، تباعدوا عنه فتباعد وارتاحوا منه فارتاح. لعله أيامها راجع نفسه ألف مرة ولم يكتشف أنه أخطأ في أي شيء أكثر من أنه كان يختلف ويعلن رأيه بصراحة لا تعرف المواردية. كان لا يتمكن من التنازل عن مواجهة ما يحيطه بحرية ودون تردد، وقال البعض إنه مصاب بمرض نفسي خطير ونادر، وقال البعض إنه

عاجز عن المسيرة اللازمة لاستمرار الحياة، واهم أنه يعيش في زمن غير الزمن كان يتطلب مثل جسارته النادرة، كان يؤمن بأنه يحق للإنسان أن يعيش عمره حسيما يرغب ما لم يتسبب في أضرار لأى أحد، وكان يرفض أى وصاية عليه من أى كائن حى، لكنها على أى حال كانت مقدمات لوجع من نوع نادر إذا اعتبرنا الكوابيس المتتابعة التى بدأت تقتحمه حالة مرضية يكابد منها فى نومه وصحوه ويتشكى من عنفوانها وتجبرها لروحه ولن يثق فيهم من الأصدقاء القدامى، كان يؤكد لهم أنها كوابيس من نوع خاص قادرة على خنقه واستلاب عمره، لكنهم جميعا أفهموه أن المسألة بسيطة ولا تستدعى قلقه الزائد فلم يقتنع وتشكك فى إمكانية إصابته بمرض قليل الانتشار يستلزم علاجا خاصا يخلصه من الكوابيس الشرسة والضارية التى تفزعه وتفسد عليه حياته فى الصحو والنم، دار أيامها على أهم المتخصصين فى تفسير وتحليل الأحلام والكوابيس من أساتذة علم النفس الكبار فأبدوا استهانتهم بالظاهرة وحاولوا طمأنته ووصفوا له بعض المهدئات والمسكنات فلم تفلح فى التخفيف عنه بل زودت كوابيسه فزودوا الجرعات فأنفتح القمقم وخرج المارد الكامن فى داخله لأن الكوابيس تزايدت وبرزت أنيابها، أوصوه بإجراء تحاليل خاصة فقبل أن يجلس أو يرقد داخل أجهزة قائمة أو مائلة أو أفقية دونما اعتراض على توصيلات بأسلاك قاتمة ملونة تلتصق بأطرافه وبدنه أو تدخل فى شرايينه برؤوس إبر طبية لم يسبق أن رآها فى كل حياته أو تخيل وجودها على سطح الكرة الأرضية، وكان يرى بدنه على شاشات التجسيد الكائنة قبالبته والسوائل الملونة

تسرى فى شرايينه فيتلون دمه بكل ألوان الطيف المباشرة والمتداخلة . لكنه كان مشوارا ضروريا ولا فرار منه ، لعله بحسابات روحه عن روحه كان جسورا . وربما قال البعض إنه كان بمتهورا لأنه يدخل تجربة غير مسبوقة بسبب أوهامه أو رغبته فى الخلاص من الكوابيس والأحلام . مع أن بعض الناس اعتبروها لازمة وضرورية لتتوازن الحياة بمعرفة الفروق بين الحلم والواقع . لكن حالته لم تكن مجرد كوابيس عابرة بل مجموعات متتابعة يصعب عليه الخلاص منها أو الفرار منها بالصحو المفزع قبل معاودة الرقاد لأنها كانت تعود بنفس ضراوتها وتكمل نفس أحداثها الدموية . يسأل روحه عن السر ويسأل من يتعامل معهم من الفاحصين وخبراء التحاليل والأصدقاء القدامى أو المعارف فيبدو له أنهم يستنكرون أو يكذبون أو يوشكون على اتهامه بالمبالغة بغرض الحصول على بعض الإشفاق أو التضامن معه . لكن العقلاء منهم نصحوه بأن يستشير أساتذة كبار فى العلاج العضوى لأنه من المحتمل أن المسألة ليس لها علاقة بالكامن فى اللاوعى فلم يتردد . دخل تجربة جديدة ودار فى كل أركان المدينة قبل دخول أشهر مستشفى خصوصى لتجرى له الفحوص اللازمة ، وعندما أخبره كبير الجراحين أنه سوف تجرى له عملية فى القلب على وجه التحديد لم يطرح السؤال الذى كان على طرف لسانه :

– ما هى العلاقة بين القلب والكوابيس ؟

لكنه وافق على قرار الطبيب الذى أضاف له فى نفس المقابلة بأن وفدا من الأطباء الأجانب والمتخصصين سوف يأتون لعمل عدد محدود من

الجراحات المتشابهة ومن بينها حالته إذا وافق على أن يدفع لهم فرق التكلفة بالعملة الصعبة فتفكر وطافت في خياله جداول الضرب والقسمة والجمع والطرح ثم وافق ، غامر وباع ميراثه من الأرض التي لم يفكر قبل ذلك أبداً في التفريط في قيراط منها. لعله كان يشعر بأن الدنيا سوف تضحك له مرة أخرى فأسلم روحه وبدنه في اليوم المحدد للفريق الوافد من هناك ، ابتسم له من كان يحمل في يمينه إبرة البنج ويقتمح بها لحم مؤخرته . أحس بغيبوبة لم يفق منها إلا بعد يومين بليلتين بحسب ما أكدت له كبيرة الحكيمات الأجنبية بلغتها الأجنبية وهي تبشره بنجاح وقد الأطباء الأجنبى مع كبير الجراحين صاحب المستشفى الخاص ولأول مرة بإنقاذه المؤكد من كل الكوابيس التي استأصلوا مركزها بعدما كانت كامنة في داخل قلبه وجاهزة للخروج لتقضى عليه في أى وقت . وأضافت أنهم زرعوها في القلب صامسا مخصصا للكوابيس يقدر على منعها من التسرب مرة أخرى ففرح وجهز روحه ليعيش في سلام وينام في سلام . كانت أم العيال الفرحانة بنجاته قد نذرت نذرا بذبح عجل سمين في كل عيد أضحي بغرض توزيعه على الفقراء والمساكين ولم يعترض ، وكان في كل عام من السنوات الخمس الأخيرة يفى بالوعد ويشترى عجلا لائقا قبل وقفة عيد الضحية ثم يستدعى جزارا محترفا ليذبحه ويقطعه ويقسمه أكواما لتوزيعها على من يستحقونها.

لعله خلال السنوات الثلاث الأولى وقد تخلص من الكوابيس كان يفتقد الأحلام والمنامات ويتمنى لو رأى حلما وديعا طيعا مثلما كان يحدث في طفولته وصدر شبابه . لكن الأحلام رجعت في العام الرابع

ربما تحقيقا لرغبته غير المعلنة لتناوشه مرة كل شهر. كان يصحو من نومه فرحان ويروى منامه أو حلمه بكل التفاصيل التي شافها لأم العيال التي كانت تفسرها دائما على أنها خير آت لا ريب فيه.

لكن الكوابيس عادت ناعمة في البداية ممزوجة بالأحلام، ثم زادت شراستها على مهل ولكن بدأت حتى أصبحت مثلما كانت وربما أكثر. قال الطبيب المعالج صاحب المستشفى الخاص أن المسألة خرجت من يده على كل المستويات وأن العلم عند المولى جل في علاه، سأله عن الصمام المزروع في قلبه وما إذا كان له عمر افتراضى يتطلب التغيير أو أن يكون مجهزا للزرع في قلوب البشر لفترة محددة يتلف بعدها وينعدم أثره؟ فنفى الطبيب معرفته بأى شيء عن ذلك الصمام الذى يتوهم أنه انزرع في قلبه على نحو ما يقول، وقال إنه من الممكن أن تكون كبيرة الحكيمات كذبت عليه وهو افتراض مستحيل، أو إنه لم يفهم الاصطلاحات الطبية لأنها كلمته بلغتها ثم أضاف إنه من الممكن أن يكون هو قد تخيل ذلك الكلام فى غيبوبته التى طالت، وقال أيضا أنه من الممكن أن بقايا الأحلام والكوابيس التى تخلص منها بالجراحة قد تمكنت من ذاكرته ورسمت له حوارا لم يحدث مع كبيرة الحكيمات التى تتميز بالقدرة على الكتمان وحفظ الأسرار، تاه فى أمر نفسه وانسحب بنظام من المكان بعد أن سدد فاتورة الاستشارة الطبية.

\*\*\*

فى بداية الكابوس فقد روحه وتخلف البدن، لكنه حام بروحه حول الولد الكبير الذى كان يقوم بعمل اللازم لدفنه، يستأجر سيارة الموتى

ويشترى الكفن ويسافر به مع أمه وأخوته إلى القرية التي ينتمون إليها. يغسلونه ويكفونونه في داره ويحملونه في نعش ثم يفتحون القبر ويحملونه ثم يرقدونه على ظهره بينما يقرأ الفقهاء سورا من القرآن الكريم. سمع عبارات التلقين وردد كل ما طلبه منه الملقن. لكنه عندما انسحبوا وقد انسك القبر على البدن رأى روحه تحوم حولهم وترافقهم في رحلة العودة إلى مسكنهم الكائن في تلك المدينة المزدحمة. لعله في بدايات الكابوس كان مفزوعا من المصير الذي انتهى إليه بعد كل المكابذات، لعله كان يرى نفسه مظلوما منذ البدايات الأولى، لكنه في غمرة الاحتجاج كان يصرخ ويسمع صوت نفسه، لعله تقلب فصحا لروحه مفزوعا ليكتشف أنه ما يزال حيا، بسمل وحوقل بمثل ما بسملت وحوقلت أم العيال، وعندما حكى لها الكابوس الذي رآه بشرته بالعمى الطويل وطالبتة يتهدئة روحه قبل أن ينام، راح في غفلة فرأى نفسه في المكان ذاته والولد الصغير الذي كان قد امتحن نصف العام الأول واجتازه بنجاح يسعى إلى جواره للوصول إلى الجامعة وسط زحام لا يبشر بخير، صحيح أنه كانت هناك ساعتان باقيتان على موعد الامتحان لكن الطريق كان مزحوما بشكل يغيظ، أشاروا لعشرات من سائقي التاكسيات فلم يعرهم أحد أدنى اهتمام، قرر هو أن يرافق الولد سيرا على الأقدام لأن المسافة كانت تبدو له قريبة وممكنة، لكنه برغم العناء والمكابدة وصل مع الولد بعد بداية نصف الوقت المخصص بعدة دقائق، كان يأمل أن يسمحوا له مجرد سماح بدخول اللجنة واثقا من قدرة الولد على الإجابة، لكنهم أشاروا عليهما بالدخول من الباب المخصص لمن يتأخرون عن المواعيد

فداروا حول مبانى الجامعة ودخلوا من أبواب وخرجوا من أبواب والدقائق تزحف مسرعة وقلبه يوشك أن يتوقف خوفا على مصير الولد، لكنه قام مفزوعا قبل أن يفقد روحه فى كابوس سخيف، شرب جرعات من الماء البارد من زجاجة ناولتها له زوجته التى كانت تحاول تهدئته وتعاود البسمة والحوقلة وتقرأ آيات من القرآن أيضا، لكنه نام وتاه عن الوعى مرة أخرى ليرى روحه المعذبة محاصرة بمجموعة من الجزارين الأشداء يحملون سكاكينهم وخناجرهم ومباردهم فى نفس الأحزمة التى كان يراها ملفوفة حول وسطهم أيام الأعياد التى كان يفى فيها بنذره الذى قطعه على نفسه بذبح عجل سمين يقوم الجزار بتقطيعه وتقسيمه لتوزيعه على المحتاجين، تذكر فى الكابوس أنه لم يتمكن فى هذا العام من الوفاء بنذره لأسباب متداخلة. كانت الأسعار قد تحركت وصارت أعلى من قدراته التى كانت تسمح له فى السابق بالشراء والذبح، لكن الجزارين فى الكوابيس لا يعرفون الرحمة لأنهم أحاطوا به من كل جانب مع من كانوا يطلبون الصدقة الذين كان يعرفهم حق المعرفة مضافا إليهم العشرات ممن يطلبون أنصبتهم، كانوا يتكاثرون حوله وهو واقف أمامهم كمجرم حرب تسبب فى قتل المئات والآلاف من المحرومين والجوعى ظلما وعدوانا، وكان يصرخ طالبا منهم الرحمة لأنه ميت ولا تجوز عليه غير الرحمة ويستحق الدعاء له بالغفران لكل ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنهم كانوا يكذبونه فيستشهد ببدنه المدفون والذى تحلل فعلا وفاحت رائحته التى تزكم الأنوف إلى حد أنها زكمت أنف روحه وهو صاحب البدن، ولعله قام من كابوسه القاسى بمعجزة بسبب

أن زوجته اقتربت منه تتحسس رأسه عمدا أو مصادفة فقام وجلس على نفس الفراش، حكى لها تفاصيل الكابوس وكيف أنه لم يرحمه لا الجزائريون ولا طلاب الصدقات، عاتبته لأنها طلبت منه أن يتصرف ويشترى عجلا للذبح في صباح العيد الذي طلع فجره وبان نور شمس وذكرته كيف أنه تعلق بضيق ذات اليد ولم تصدقه أبدا لأنها تعرف أنه مستور عن غيره ويستطيع ولو بطلب قرض من الوزارة التي يعمل بها أن يوفى النذر. شعر بالخجل وبشرها باحتمال أن يتمكن في العام التالي من الوفاء بنذره وذكرها بتلك المسابقة التي تمنح من يحل شفرتها جائزة كبرى وقد حل أسئلتها وبعث الحل إلى مبنى التلفزيون آملا في الفوز لأنه من الممكن أن يكون هو الوحيد الذي حل اللغز واستحق الجائزة.

في صحوه المؤكد كانت أصوات المصلين تتناهى إليه منظومة ومقتابعة فأمرها بإيقاظ العيال حتى لا تفوتهم صلاة العيد، تطهر وتوضأ ووضع فوق جلباب النوم عباءته وسحب سجادة الصلاة الخاصة ثم خرج بعد أن نبه عليها بمعاودة المحاولة مع العيال ليتبعوه للمسجد ووحيدا مع روحه سار في الطريق ساعيا ليلحق له مكانا قبل أن تبدأ الصلاة، ومن بعيد رأى عياله وسط أصحابهم، سمع أسئلة العيال لهم عن عجل العيد فشعر بالحرج طوال الطريق إلى مسكنه، كانت المساحة البراح التي اعتاد مع سكان العمارة أن يربطوا فيها خراف العيد والعجول خالية إلا من عجل وحيد يلتف حوله جماعة من الجزائريين ومن يطلبون الصدقات، وكان جارهم الشرس يزيحهم بعيدا عنه وعن ذبيحته بالسباب والتقريع، يشير ناحيته بشماتة فيتحولون إليه وكأنهم وجدوا لديه مطلبهم، وبعسر

العسر تخلص منهم ودخل مسكنه . كان يسأل نفسه كيف أن أشرس ساكن بشهادة الجميع هو الوحيد الذى اشترى على غير العادة ذبيحة مع أنه لم يوزع أى صدقة على كل من وفدوا واستجدوا بأصوات مسموعة كانت تبهجه على ما بدا لكل من شاف أو سمع ، وقال له أحد سكان العمارة بينما يستقبله هامسا فى أذنه أن الوحيد الذى ذبح عجلا فى العمارة يتاجر فى المنوعات ويكتب تقارير عنم يتاجرون فيها فيبدو متعاوننا مع أجهزة الأمن ، استنكر فأقسم له الآخر بأنه صادق ومتأكد من معلوماته فبدت عليه الدهشة . لكنه بعد أن خرج الضيف شعر بدوخة حادة ورغبة فى النوم ممزوجة بخوف من الموت فى كابوس جديد . قاوم بقدر استطاعته وتذكر أنه فى زمن الشباب المندفع قاد مظاهرة ضد نفس الدولة التى يحمل جنسيتها نفس الوفد الذى أجرى له الجراحة فى القلب . خاف أن يكونوا بالفعل قد زرعوا فى قلبه صماما له عمر محدد يبطل تأثيره بعدها وارتنك على طرف السرير فشاف الكابوس المرعب والقاتل فى نفس الوقت ولم يستجب لهزات أم عياله أبدا لأنه كان قد مات بالفعل .



## غفوة غفلةً وبعدها صحوة

كان فى المنامات يتجلى لى صورة تتشابه على نحو ما مع ملامح جدنا الكبير، وربما كانت الثياب المغايرة واللحية تسهم فى تبديل التقاطيع المألوفة لهذا الوجه الذى أحببناه وافتقدناه برحيله عن دنيانا قبل أن أتعرف عليه أكثر أو أتأكد من تقاطيعه على النحو الكافى، كنت فى سنوات الصبا المبكر محميا باسمه فى دروب الكفر من العيال الكبار إذا عاندونى أو خطف أحدهم لعبة منى، وآباؤهم وأمهاتهم أو أخوتهم الكبار ينبهونهم بأننى حفيده، فيتباعدون أو يتبدلون إلى أعوان يلاعبونى بحسب ما أرغب دونما اعتراض وأنا وافد فى زيارة للكفر فى إجازة نصف العام أو إجازة الصيف، وداره البراح تمتلىء بأنفاسه وعيناه الفاحصتان المتوددتان تتباعدان فصرت أفتقده فى الدار البراح التى كان يستقبلنا فيها ببشاشة وترحاب، يحملنى ويدور بى عدة دورات ثم يقبلنى قبل أن يسلم على أبى ويدعوه للجلوس ليرتاح من عناء السفر، وربما يفتاحه ويطلب منه العودة لنعيش فى داره ودارنا وأبى يسايره ويعدده أن يفكر فى الأمر، أو يتعلل بالسنة الدراسية التى يمكن أن تضيع لو لم أكمل العام الدراسى فى تلك المدينة القريبه من كفرنا. ربما كنت فى التاسعة ومشوارى للكفر مع الأب الساكت يبدو لى عبثا بسبب سكوته طوال الطريق مترددا عن البوح بما يتخفى بداخله من

أحزان، كان الوقت يمضى وهو يتأملنى بينما نركب القطار فرحان لأننى سألتقى بالجد، ربما تردد كثيرا وهو يبوح لى أننا لن نلتقى بالجد هذه المرة لأنه سافر لبلاد الحجاز ليصبح خاجا حقيقيا، وعندما دخلنا الدار سألت جدرانها عنه فباحث لى بأنه رحل، والحزن المخيم على الوجوه يزرع القلق، كانت أياما ثقيلة، وعبارات يتبادلونها مقتضبة وخافتة. لم يكن هناك غير أصوات المشايخ يرتلون القرآن تباعا ويخرجون صامتين ليفسحوا مدخل الدار لغيرهم ليجلسوا ويرتلوا الآيات، سمعت عبارات الرحمة المتكررة تقال وكأنها اعتذارات ممرورة عن خطأ ارتكبه جميعا - فأحسست أنه لن يعود قبل أن يبوح لى ابن عم أكبر أنه مات فأبكاني وبكى وندمت على الأيام التى عشناها بعيدا عنه كلما سمعت أحد أعمامى يقول أنه سافر رحلة حج وطالت وسوف تطول أكثر لتصبح أكذوبة مكشوفة تشعرنى بالحزن على من مات، أتماسك مانعا نفسى من تكذيبهم لأفرغ ما كان مخزونا فى القلب المحزون ربما بحزن أكبر من حزنهم وأوشك أن أفتح أبى عاتبا عليه أو لائما لأنه لم يخبرنى بما جرى لجدى ونحن فى المدينة، لكننى لم أفعل وما عرفت أن أستعيده أو أستعيد أيامه التى كنت أقضيها بجواره وأحتمى به وأنا بالقرب منه. أحتمى بظله وأغتر له ما قيل عنه بأنه اعتاد لأسباب غير معروفة لهم أن يدفع أحد عياله وعيال عياله باليد أو القدم ليغطس فى التربة أيام الفيضانات ولا أحد يعرف لماذا كانت دفعاته للعيال فى أيام الفيضان والنيل وجود بسحاء على الغيطان، قالوا إنه كان يدفع الصبى

دفعاً قبل أن يكتمل عوده ويصير شاباً، يدفعه في أيام الفيضان بالتتابع قبل اكتمال مواسم الفيضان ويجلس ليتفرج باسماء على أى واحد منهم بحياد هادئ، وربما يقف ليتأمل نتيجة الدفعة بحساباته، وغالباً ما كان يعاود الجلوس مطمئناً وهو يعتب على نفسه بعد أن يتأكد أن قدرات الحفيد بعد الدفعة ستتخطى المخاطر فى الحالات التى يغالب فيها الصبى أمواج التربة ترمح لكنه يدعوهُ أن يواصل، يقولون فى جلسات السمر أنه كان يقيس سرعة الصبى وسرعة مياه النهر فى تلك التوقيات وكيف يجبر الصبى على عبور التربة للشاطئ الآخر، ولأن تلك النتائج كلها كانت لصالح من دفعهم خلسة ليعبروا عائدين كما يأمرهم وهم يسبحون ناحية الشاطئ الذى نزلوا منه، فيبتسم هو و ينادى الواحد منهم ليجلس إلى جواره لأنه أفلح فى السباحة رغم شدة الفيضان، يومها تأكدت أننى تعلمت السباحة بشكل أفضل مما كنت أفعل بحمام نادى طنطا الرياضى وقد كنت أصغر أحفاده الكثر الذين يتوه فيهم ويتشكى لى بينما يجلسنى إلى جواره دائماً حول طبلية العشاء المزحومة بالوجبات الدسمة وهو يتأملنا. يتأكد من اكتمالنا رجلاً وصبية حول طبلية والنسوة والبنات حول طبلية مجاورة، وقطع اللحم أو الطيور التى سلقوها وحمروها فاحت رائحتها ليكون راضياً فيكافئ من طبخت وهو يقطعها واللحم الساخن يفوح برائحة الدخان بينما يوزع الأنصبة بسخاء علينا جميعاً مطالباً من يرى أن نصيبه أقل أن يطالب بالمزيد، كانت أنصبة الصغار والكبار تكفيهم دائماً وكنت أشعر أنه يختار لى ما أرتاح

لطعمه أو شكله ويضيف قطعة منها كلما ابتلعت من نصيبى قطعة وأشعر بالشبع . لكنه يمد يده بقطعة من نوع أحبه ويحايلنى لأبتلعها من أجل خاطره فأبتلعها وأنا أشعر بمزيد من الامتلاء . كنا كبارا وصغارا نتبادل النظرات كى نجتهد لنكمل ما أعطاه لنا لنشبع لأنه لايسمح لمن يشاركه الطعام أن يقوم قبل أن يتأكد من شبعه . ومبتسما بشاربه الكثيف ذو الشعر الأبيض الذى يغطى فمه ؟ شعر أبيض وناعم وكثيف يغطى الفم بالشفقتين لكنه لا يعوقه عن الكلام أو تمرير الطعام . يأكل مستمتعا بكل ما يدخله فى فمه وهو يتابعنا بنظراته الفاحصة المتأملة . وكنا بعد شعورنا بالشبع نجلس فى براح المنذرة لنسمع حكاياته التى لا تنتهى أبدا . حكايات عن الجن الساكن تحت الأرض وعن الأجداد الكبار الذين لم نسمع عنهم أو نراهم وهو يحدثنا ويرسم بالكلمات صورا لبشر لم نلتق بهم . لكننا نستشعر أنفاسهم وهم يحيطوننا وربما يباركوننا ، ومزهوا بسلالته وكونه امتدادا لأجداد يحق لنا أن نزهو بهم ونتباهى ، ننظر إلى الرسوم المعلقة فى براويز لرجال بشوارب وطرابيش أو عمامات فوق الرؤوس فأتأكد أنهم من نفس السلالة التى نعتز بها . وأبى فى مثل تلك السهرات يوصيه راجيا أن يكف عن عادته القديمة بدفع الصبية فى مياه الترعَة ليَجبرهم على تعلم السباحة أيام الفيضان . يضيف له وهو ينظر ناحيتى أن بشائر الفيضان هلت . فيهز رأسه معبرا عن إعجابه بملاحى التى تتشابه مع ملامحه فى مثل عمرى . ويربت على ظهرى متمتما بكلمات ثم يهز رأسه باسماء ويقول إنه لن يدخلنى التجربة

إلا لو تأكد أنني سأجتازها، وبدأ لي أنه كان عارفاً بأننى سأجتازها، قبلها بساعات كان أبى يعاود طلبه مثلما يفعل فى كل مرة. فأكد أنه لن يفعلها معى ليطمئن قلب أبى، كان الجد يناوشنى بارتياح وربما اطمأن بينه وبين نفسه بمقدرتى على عبور التربة حتى لو دفعنى بكل قوته سأعبر عائماً بعزم يتشابه مع عزمه، وقد حكى بعض من شافوه وهو يدفعنى بعنف كيف أننى لم أصرخ وكأننى كنت أعرف مسبقاً وأجهز نفسى للدفعة دون صرخة. وكيف أننى عبرت واتجهت ناحيته فى مشوار الرجوع دون إشارة منه مثلما كان يفعل مع أولاد أولاده الأكبر منى. وأبى يسمع وعيناه تتحركان ناحيته وناحيتى بالتتابع والعيون تحاول أن تستوضح بحثاً عن تفسير لحادث عارض مر أمامهم مثله كثيراً بتفاصيل مغايرة، وكان الرجل يهز رأسه ولا يبدو عليه أنه سيرد عليهم، وعندما سألونى لم أعرف كيف أجيبهم رغم تشجيعهم، ومتحيراً وربما متخوفاً من ذلك الاحتجاج غير المنطوق أو حتى العتاب على ما جرى منه. وكيف كان أى واحد منهم لا يتجاسر على معاتبته أو لومه وهو يرانى أمامه مرتاح التقاطيع دون علامات للخوف، وكانت حكاية الجد مع كل أحفاده حسب ما قالوا بداية لتعليم الصغار السباحة دون قلق أو خوف من ماء النهر فى أيام الفيضان. كانوا يجلسون على عادتهم فى المنذرة الكبيرة يتأملون ملامحه وهو يحكى لهم حكايات قديمة عن عروس النيل التى كان الأجساد القدامى يقدمونها للنهر ليحافظ على مساره الصاعد ليروى الزراعات، وكيف أنها لم تكن فى

أى مرة تغرق فى مياه النهر، بل كان يحتويها ويحميها وينقلها الى قصر يخره فى واحدة من المرتفعات التى تمده بالماء الذى يتولى نقله إلينا كأمانة يتعهد بتوصيلها إلينا كى نعيش فى أمن ودونما أى قلق، وعروس النيل التى أحدثكم عنها تعيش مع زميلاتهما من عرائس النيل وحولهن الخادماى يقضين مطالبهن دون مراجعة أو تأجيل، وأعمامى يتسمعون وتبدو على تقاطيع الوجوه علامات الشك دون أن يجرؤ أيهم أن ينطقها أو يترجمها لكلمات، ربما يهز الجد دماغه وهو يراهم على هذا النحو، ساكتين لا يعلق أيهم بأى كلام على ما قاله الجد، أحيانا يأمرهم بالعودة إلى بيوتهم والرقاد فى أحضان زوجاتهم أو مع عيالهم، فيتبادلون النظرات ويوافقون على ترك المكان تلبية لما أمرهم به قبل أن ينفعل ويطردهم طردا لو تكاسلوا، ويقهقه وهو يودعهم بما يرضيهم ويجبر بخواطرم فيتضاحكون ويتحركون، ويتجاسرون وهم يتباعدون على تفسير ما قاله الرجل وما يلزم أن يتعلموه منه ومن حكاياته عن النيل وعروس النيل، وربما يتساءل أحدهم فى جلسة أخرى إن كان النيل يرضى باستبدال تلك العروس الجميلة بصبي يمكن أن يكبر ويصير عريسا جميلا ينافسها فى السيطرة على مياه النهر بعد بضع سنوات، فيبتسم ويربت على كتفى داعيا لى أن أكبر وأكون واعيا وناجحا فى حياتى فيبدلون الموضوع ويتقبلون ما يقوله عن ذلك الزمن الذى فات منهم ولم يتعايشوا معه فيه بكل ما يحتويه من بساطة وراحة وأحلام مشروعة وحياء يتعامل الكل فيها بكثير من مراعاة الأصول، وكيف أن

تفريضة النيل وهي تطل على رأس غيطه الكبير تحدثه وتطهره عندما ينزل إليها قبل الفجر بساعة وكيف كان يحسب قوة أمواج تلك التفريضة ويعرف مسارها لأنها كانت تبوح له بالأسرار، وكثيرة هي الحكايات التي كان يرويها لهم في تلك الجلسات التي تجمعهم، يتسمعون ثم يرحلون ويتحاورون ويتندرون، دون أن يجرؤ أيهم على مقاطعته أو حتى إبداء التشكك في مصداقية ما قاله.



وكان أبى يحدثنى عن الحلم بتحقيق السعادة وزيادة الوعي بالدنيا وما يتبدل فيها قبل وبعد رحيل الجد، وكيف أن أمنياته لا تتحقق إلا بعد صراعات مع خصوم لنا لم نكن ننتبه لوجودهم وهم يدورون حولنا على نحو متواصل، وأنه يلزم أن ننتبه لنصون أنفسنا من مخاطر الزمان ونحن نعيش في الغربة، وأنه لولا «بركات السيد البدوى» التي حلت علينا واحتوتنا لنعيش في تلك المدينة وما نحتاجه من مطالب الحياة، وكيف أن تربية الجيل الجديد الذى سوف يأتى ويشاركنا المعيشة فى تلك المدينة «يذكرنى بأننى صرت شابا» وأنه يتمنى أن يرانى زوجا لبنت الحلال لأكون أبا لعيال يراهم ويفرح بهم، ولأنه لو حقق حلمه أن يصير جدا لعيال من خلفتى، فإن الدنيا لن تتسع لاحتوائه، وكيف أنه سوف يحاول تربيتهم وتوعيتهم بضرورة حماية النهر ممن يطمعون فى قطع مساراته، وكيف أنه يصعد إلينا ويفى بوعدده فى مواعيده كل عام ولا يخالفها لنروى أرضنا من ماء النهر الذى يعطينا من مجراه الآتى من البعيد البعيد، ويواصل فأسمع ما كان يبوح به جدى بينى وبينه،

وكيف أن النيل يشبه العريس الشاب الذى يمشى فى حفل الزفاف مزهوا بقوته وواعيا بمساره، وأن تفرجة النيل التى يطل عليها الجد عند رأس غيطه سوف تبوح بأننى عبرت وعدت لأشارك الجد جلسته. وأنه صار مألوا أن يرانى أسبح ويسمع أننى فزت فى مسابقة للسباحة والغطس فى حمام السباحة فى نادى طنطا الرياضى فيبدو فرحان وهو يتذكر جدى، تتبدل ملامحه علامة السعى للخروج من مأزق يستشعره ويحاول أن يداريه، وكيف أنه بدّل ترتيباته لمستقبل الأيام، وموهوما أننى أصدقه عندما يقول ليقطع الصمت «أن بركات السيد البدوى حلت علينا واحتوتنا كغرباء نسعى من أجل الستر» فأهز دماغى متظاهرا بالموافقة على رأيه، وخيال الكفر يتبدى لى متباعدة يصعب الوصول إليه رغم ثقتى بأن المسألة لاتزيد عن ربع الساعة لو ركبت القطار متوجها نحو الكفر الساكن فى الذاكرة لا يبرحها أبدا، ومن كثرة التفكير والأيام تمضى صار القلق عادة، وخيال الجد الراحل عند رأس الغيط دوما يصدر الأوامر ويتابع ما تبدل من مساحات مزروعة وممدودة، خضرة تامة على الأرض تتحول فى مواسم الزراعات المحفوظة عندهم، وأزمنة نرى فيها سمرة تحفرها الفئوس وأسنان المحراث قبل رمى الحبوب، وأبى الذى كان يبدو ضيفا مستمتعا لما كانوا يقولونه له عن الجد الراحل. يفسرون له الدوافع التى لم تفاجئه، حتى الدفعة القوية التى أصابتنى وهو يدفعنى لتفرجة النهر بحساباته. يؤكدون له «أنها كانت اختبارا متكررا لكل الصبية فى مثل عمري. وأنه لم يكن يقصد إغراقى ليحرمه منى كما فسر الأمر أيامها لمن شاركوه السهرات من أبناء أعمامه الكثار

كلما فتحوا له المسيرة فيريحونه ويوافقونه على ظنونه التي زرعوها في عقله دون أن يدري.



كان الجلوس على شط الترعة الكائنة عند رأس غيطه عادة يعرفونها، وربما كنت أعرف الحكاية التي يتحدثون عنها لتخوف أبي من عدم قدرتي على عبور الترعة لو تعرضت لدفعة من دفعات الجد العفى، وأنه قلل زيارته حتى انتهى الأجل المحتوم للرجل، ينفي أبي أنه كان غاضبا من المرحوم، ولم يكن متخوفا على أكثر من مخاوفهم على عيالهم، ويضيف مثلا أنه شافني أعوم في نفس الترعة مع أبناء الأعمام الكثار، وقبلها رأني أسبح في حمام سباحة نادى طنطا. يوضح أبي أنه كان يرانى أصغر أبناء العم وأنه كان ينظر لى ويقول لجدى إننى «آخر الفرحة» وصحيح أنه لم يكن يبوح لهم بما يقصده بشكل مباشر فى وجودى، كان الكبار يتهامسون مع الكبار، ربما استنكارا لخوف أبى المبالغ فيه، ولأن الجد فى نهاية الأمر كان يستطيع أن ينقذ أى غريق سواء كان غريبا أو قريبا. بل إن وجوده عند رأس غيطه بالقرب من شط الترعة كان يزود جرأة صبيان العائلة، وأن الكل كان يرمى نفسه أو يرمى صاحبه واثقا أنه لو تعرض للغرق فإن الجد حسبما كانوا يؤكدون يتطوع لإنقاذ من يشرف على الغرق غريبا أو قريبا، لكن أبى كان يعترض ويوضح أكثر أن قلقه من احتمالات غرقى لم يكن بسبب الدفعة القوية بيد الجد العفية أو حتى بالتقدم لم يكن يقلقه. وإن الأمر كان يتعلق بالتوقيت الذى كان يختاره أيام الفيضان، يضيف أن النيل

غشيم ويمكن أن يدفع أمامه أى شيء حتى ولو كان جبلا. وكيف أنه كان يندهش لاختياره هذا التوقيت ليفعل فعلته مع كل صبية العائلة فى مثل سننى وفى أيام الفيضان الكاسح كأن الرجل كان بينه وبين النيل ثارا، لأنه اختطف صبيا فى العاشرة من عمره قالوا إنه كان ابن عمه. لكنه يتذكره فى كل مرة ويعانده ويرمى له واحدا من أولاد أولاده أو أولاد أولاد العم. يتسمعون باندھاش وكأنه يقول تلك الحكاية التى سمعوها مرارا وتكرارا وتظاهروا بعدم تصديقها، يهزون الرؤوس مجاملة له ويشكرونه لأنه ذكرهم بما نسيتهم عقولهم، ووافقوه لأنه كان يتمنى أن يكف الجد عن تلك الدفعات التى عملها مع عياله وعيال عياله وعيال عيالهم تباعا.

ولأننى كنت أصغرهم فقد كان يشير لى لأجلس بجواره بينما يقشر عقلة القصب ويمدها ناحيتى مقشرة. فأمضغها على مهل وأشعر أنها أحلى عقلة قصب وأنا أمصها متمهلا فيبتسم لى راضيا وفرحان بوجودى إلى جواره، أستعيد زمانه وأستمتع بصحبته فى منامات. ويتبدى لى فى المنام أننى أوشكت أن أمسك بداية الخيط. وهو يربت على كنفى لينبهنى أن أكون صاحيا لروحى. أتنهد وربما أتقلب فى فراشى مرحبا بصحوتى على نحو غامض. ويتجلى لى وأنا أتأمل صورته الساكنة فى نفس الحيز أمامى. ربما تنقلنى عينائى لأرى صورة أبى فى بروازها القديم وعلى وجهه علامات ارتياح وزهو لأننى أعجبت جدى القديم فى المنام. ولعلها خلافات كثيرة كانت قد نشأت بسبب دفعات الجد لعياله وعيال عياله. وسواء دفعهم باليد أو بالقدم ليواجهوا الاختبار

ويتعرضوا للخطر. فقد كنت أحاوره فى الصحو بعدما تهت فى الغفوات وارتعبت فى الكوابيس أمام الجد أو واحدا يشببه إلى حد التطابق، أشير لصورة أبى الذى أراه مطرقا على استحياء فى وجود الجد القديم، وأمسك ببداية الخيط النحيلة، وربما يطاوعنى عقلى فى الصحو لتهدأ روحى، لكن عندما تعاودنى علامات بداية جديدة لغفوة أجهز نفسى وأسترخى راضيا وأنا أتمنى أن يتواصل المنام الناعم ويتجدد بترتيباته التى عشتها معهما، وأرانى مسترخيا فى صحوى المتغافل أستعيد تلك الرؤى متلاحقة لسنوات فانت. ولم أكن مطمئنا لإمكانياتى فى استعادتها لولا رؤيتى لتلك المنامات العابرة التى كانت تحاصرني وأراها تتوالى متتابعة، تستعرض وتعيد للذاكرة أحداثا لم استعدها بترتيباتها كما عشتها برغبتى أو غصبا عنى. وخلال السنوات التى قاربت أن تكمل نصف القرن وهى ترتب نفسها أو ترتبها ذاكرتى وتصحو على مهل وقد تكشفت أبعادها التى كنت أحسبها معطوبة. ربما لأنها لم تكن تتواصل بعد الصحو بتعنت لولا الرؤى المتأخرة الممدودة التى تستعرض الكامن والمخبوء ليتجلى ويعلن وجوده فى صحوى كجزء من نسيج عتيق لكنه لم يهترئ. ولأنه صار يتجلى خطفا على نحو يتوافق مع ما قلته لنفسى عن نفسى كى أصبح متوافقا مع أقوال الأهل والأصدقاء، وقد انشغلوا بما قلته وتابعوا ما تبدل فى حياتهم وحياتى صعودا وهبوطا، قبولاً ورفضاً، أو سعياً وتكاسلاً، يتشابه مع تراخ عن غير قصد يضعنا أمام أنفسنا على عكس ما كنا نتمنى أو نتخيل، وكالبنيان التائه غير المسنود على هوية لها جذورها الضاربة فى نحاع

تلك الأرض التي لم تكن تتبدى إلا بعد مناهات واستسلامات. وتصل لحد التبلد المفتعل والتظاهر أن الدنيا بخير رغم الفرار. وعدم القدرة على التفسير أو المواجهة، ثم مرحلة جديدة تتأكد فيها الحقائق لنعرف الفوارق ما بين الكابوس والنام الدموى والوردى. ثم ماذا عن التوحد الجديد ثم السعى الذى أوشكنا أن نستند عليه لكى نزرع فى الزوايا حلما وتوافقا لا يشطرنا نصفًا فاعلا ونصفًا متخاذلا. فيتعايشان رغم التناقض والخلافات دون أن يفكر أيهما فى إزاحة الآخر وهما يتعايشان على نحو مغاير، ولعل من كانوا يحيطوننى بملامحهم لمحو ما كان يتبدى أحلاما لا تندثر فى الصحو الذى صار يميل إلى التوافق والمشاركة المأمونة، وهو يستعيد ملامح الأجداد التى تتبدى ركائز نتساند عليها ونطمئن لوجودها فى كل صحو.



دعنى أطلبك الآن وقد بحث لك بمواجعى أن تنصفنى وتتوافق معى، تبرر لى ذلك الطموح الذى تجدد لى. فصاروا يحدثوننى لا أقول من مربع الحسد بل أقول أنها تولدت من منطقة المباركة، وربما تسللت لمشاعرى بعد زمن التخاذل، ومثل تلك المخاوف التى تعايشت معها مرافقا لبعض الكسل متقبلا بعض التبلد المعجون بالخزى وأنا الحالم بالطلوع، وحالات الصحو من الغفلة التى تنبهنا لوجودها فى الخلايا الساكنة فى أبداننا بعد أن سعينا ناحيتها لسنوات طالت وطالت، وتمددت وكتمت على أجهزتنا العصبية التى بدت لنا شاكية لأبداننا وغير متشكية لمن يتابعون حركتنا عن بعد ويتدبرون أمورهم، وتبادلنا

الأسئلة عن مصائرنا لو تجاسرنا وسألناهم أو تشكينا لهم دونما حذر، وبأياديهم الأسلحة وكيمائيات التدمير الشامل، وربما دار الحوار المنطوق بيننا أو اتفقنا بعد أن سألنا بعضنا البعض، ماذا لو سايرناهم وواصلنا خطواتنا بنفس الإيقاعات الكسلانة، وتلك التي ترضيهم وتطمئنهم بأن غفلتنا طالمت خلافا لكل توقعاتهم. ولقد بدا لهم أنني غسلت نفسي وغسلت ثيابي من تراب الأرض الطينية، وتباعدت عنها مثلما قالوا عنك وهم يتندرون على مخاوفهم التي لم يكن لها أى مبررات، لكن الأرض الطينية فى دروب الكفر كانت تسكننى . صحيح أنني تباعدت عنها غصبا عنى ولم أرجع لها متعجلا على أى نحو قلت لنفسى أيامها «فى التانى السلامة» ورغم أنني تبينت البدايات التى قادتنى لتلك الدهاليز المفتوحة على الفراغ المفتوح وتحملت صدها، وكانت الشمس المألوفة فى الكفر تدعونا لتتخفف من ثيابنا لو سنحت لنا أى فرصة، وفى بلادنا كنا فى طفولتنا وصدر ثيابنا نتخفف من تلك الثياب، ولا يتبقى لنا إلا ساتر العورات المكشوفة بلا خجل، ومثلما كان أى هبوط وأى صعود مرصودا بعيون الأحبة والخصوم بدرجات متفاوتة فى حياة البشرية، وقد يسفر عنه محصلة نهائية ترجح كفة من الكفتين الساكنتين ويكون الناتج خطوات إلى الأمام أو خطوات إلى الخلف، والثمرة المستحقة مقابل المهمة التى بذلناها. وهى الشوكة الجارحة مقابل التخاذل، مسائل متشابكة لا يحسمها الكائن الحى وحده. يصعد أو يهبط بها متوافقا مع نفسه، راضيا فى بعض الأحيان عما صار إليه حاله. ومعترضا أو ساخطا فتأتى الرياح أحيانا بما لا تشتهى السفن.

مثل ما قالوا لنا فى بواكير الحياة فأتحول إلى كائن ساكت متأمل يختزن اختياراته لتتواصل الحياة ويبقى مستمسكا ببقائه، ودون أن يحسبوا حسابا لمعايير الإرادة البشرية لأى كائن حى . ليتعرفوا على دوره الفاعل أو دوره السلبي فى الكثير من الحالات وكيف يقاوم رغبة الخلاص من الحياة هروبا أو انتحارا، وبخلاف حالات تدافع الكيان الحى لسكة الخلاص والانسحاب عجزا يتعادل مع فرار من مواجهة أعداء الوطن بميادين القتال وهو فرار بكل الحسابات، ولا يهتم بعد ذلك ما يقال لحفظ ماء الوجه بعده، وعلى استحياء أحيانا أو بتبجح يصل لحد ادعاء المهزوم أنه انتصر، فيحق لنا أن نستشهد بما كتبوه فى بعض صفحات التاريخ المحسوب. ومن وجهات النظر التى تخصهم، ولا يهمهم مثلا أن نقبلها أو ننتقدها باعتبارنا ممن قرءوا التاريخ المكتوب من وجهات نظر متباينة تتفاوت فيها اجتهادات من تولوا الكتابة بين صدق وتزييف مكشوف وهو تصور القائد المهزوم بطلا، فاز على نحو غير مسبوق ليدخل به تاريخ البشرية المكتوب والحافل بمثل هذه الأكاذيب، وربما لأن المنتصر لا يعنيه ما يشاع عنه وقد تحققت أغراضه الكبرى، فماذا يضير لو بعبع مهزوم أمامه بادعاءات يفتعلها، وهو يروى تاريخه لقبيلته بتواضع مفتعل، فيتظاهر البعض بتصديقه ليرتاحوا من دخول ساحة الجدل تصديقا أو تكذيبا. وقد أتجاسر قبل أن أبوح لنفسي بالحقائق كما عاينتها وعاشتها. وأنا نفر فى جيش قبيلته التى عبرت الحدود ثم تراجع مسنودا على خطوات تأكدت فيها جسارته بشهادة المشايخ، وصراخ الخصوم الراغبين فى تأكيد نصرهم. وكإضافة يتمسك بها على

النحو الذى يؤكد له إن نصره كان نصرا خالصا، ولأنه أخرج نفسه من مربع الأقاويل وشهادات مكتوبة ومدموغة ومبصومة، تشهد بأنه حاز نصف نصر ونصف هزيمة، وهى فى النهاية حكايات متداخلة تتوه العقول التى ترغب فى الفهم. ولكى يستعيد الجسارة الساكنة فى الجينات الوراثية المؤكدة، وكم أكدوا له أنه الوريث الشرعى لسلالة قال خصومها إنها انقرضت وتلاشت، وما تبقى منها غير بضعة نقوش قديمة وبنائيات وعواميد وتمائيل حجرية لأنصاف آلهة، وكل ما هو مسطور وباق شبه كتابات غير محلولة الرموز، ونقوش بارزة تكسرت زواياها وصارت غير قابلة لفك أى لغز يدعيه من يدعيه. وكم أشاعوا أن من قال إنه فهم دلالات تلك اللغة وفسرها عابر سبيل، ولم يكن وريثا شرعيا لمن دفنتهم الأزمنة تحت رماد الأرض. لكنه كان بارعا فى تفسير الدلالات التى رآها. ولعله لم يهتم أو يتراجع بعد أن تيقن من مصداقية تفسيراته. ولأن من كانوا خصوما للحياة كذبوه على عادتهم. ثم انزاحوا متباعدين عنه ليرتبوا أقاويلهم التى سربوها عن ذلك التداخل والتشابه الواضح ما بين تلك الكشوف وطلاسم عتيقة، سطورها فى السابق وادعوا أنها تتشابه أو تتطابق مع الطلاسم التى سجلوها خطوطا ملوية ومقلوبة، وعرفوا بها الغرباء وبرعوا فى تفسير الحالة بأقنعة حياد زائف. وكما غضبوا ممن اعترضوا وقالوا أن هناك أدلة معكوسة تنفى تلك الدعاوى. بل تناولوا عليهم وأكدوا أن الطوفان أزاح أجدادهم ودفنهم تحت مياه البحار والمحيطات وأنكروا عودة الأموات بعد آلاف السنين ثم تحولوا إلى فزاعة لتخويف الأحياء من تلك السلالة التى

حافظت على ميراثها وحنطت أبدان من ماتوا منها وأسكنوهم فى البراح  
المحفور فى سراديب تلك الجبال ليتواروا عن الخصوم الذين تطوعوا  
لتأكيد فنائهم. فلم يصدقهم العقلاء. وتلونوا وأشاعوا أن لهم نصيبا فى  
تلك الأبدان لأنها تخص أولاد عمومتهم العقلاء.



اعتدت رؤيتهم فى تلك الغفوات بتفاصيل ملامحهم المؤكدة فى  
منامات تتماهى ثم تتوه، ويتأكد لى أننى دخلت صوة مباحة جديدة  
تنضاف إلى صحوات مكتملة تتخلل غفواتى المدودة لثنقطع الرؤيا وتتوه  
منى تفاصيل الملامح التى تخصنى، لعلنى تمكنت من استعادتها فى  
الرؤى المطوطة المتتابعة وهى تقتحم خيالاتى فى بدايات كل صوة  
لوجوه أخرى وملامح تفرزنى أحيانا، ربما لأنها تتخفى فى الثياب  
المسلوبة أو محبوكة التصنيع إلى حد التشابه المتطابق لكنها لا تتمكن من  
رسم روح التقاطيع واللامح. ولأنها كيانات مدسوسة علينا بما لا يقبل  
الشك فقد كانت تأتى لتفرزنى، فأقوم من رقدتى لأتحفف من حالات  
المطاردة المتواصلة من وجوه خصوم لا أملك حتى أن أتجاهلهم أو أسيح  
عنهم وهم يترصدون خطواتى بلا كسل أو ملل، حتى فى الحالات التى  
يبرعون فيها مثلا فتوشك الوجوه أن تشابه إلى حد أن التفرقة بينها  
يكون عسيرا فى الصحو أحيانا فما بالكم بها فى منامات كابوسية  
مدسوسة علينا فى الصحو والرقاد، والاستنساخ المتراكم يتشكل ملامح  
مشتركة وطالعة من نفس الجذور وهى تعاود الظهور لأفرح بعودتها  
بعد أزمنة تباعدها وقد طالت ثم تحولت لمنامات تتجسد كيانات حية

تتجاوز أو تنطق أو تحكى وتقول لنا شيئا عن الجذور المشتركة معي ، وأنا أوصل تحريض الذاكرة لكي تتوافق وترصد ما شافته خلايا العقل الباطن في منامات متقاطعة وممدودة، فتسكو ذاكرتي من زحام تلك الرؤى المتعارضة، أحايلها وأعدها بأننى سأحوظها بكل الرعاية، ثم أصدقها فتتجسد ذاكرتي أمامي كيانا حيا يواجهني متأملا ساخرا من أمنياتي المشروعة للوصول إلى توظيف المستحيلات المرسومة بخيالاتي في كيانات حية تعي دورها وأقوم برصد ما كنت أراه في مناماتي متجسدا بلا هوية محددة وبملاح متقاربة، فأقف عند حافة اليأس من إمكانياتي كي أجعلها أكثر طاعة، تقهقه وتتمنع وتتبعأد أكثر، وأتعايش مع الفراغ، فراغ الذاكرة من كل إمكانياتها للربط بين ملامح بشرية تاهت مني في الزحام وإن كنت أعرف هويتها وأستشعرها، وأوشك أن أعتب عليها لأنها تفر مني ولا تفكر في الرجوع مستنكرة أنها ما زالت تخطر على البال، فأستشعر اليتم وأحاول معاندا نفسي أن أستعيدها واعد أن أحدد هويتها وأكون جاهزا للحوار معها مستنكرا فرارها بعد رؤيتها بشكل متكرر، وفي غفوات تتلوها منامات محايدة تناوشني وتتضحك معي وتلففني وتعايرني بضعف ذاكرتي فأنكر وأعتب على تلك الملامح متوددا لها ومؤكدا أننا ننتمي لجذور واحدة وأنتى أتماسك وأقاومهم ولا أضعف إلى الحد الذي يبرر أن يتحول حوارى مع تلك الملامح إلى معايرة ساخرة، ولولا العزيمة والعناد الواثق من قدرته حتى ولو كان فاقدا ذاكرته في الصحو واعيا ومطمئنا لوجودها في المنامات،

وربما استشعرت خلال حوارى مع ذاكرتى بأننى فى كل الحالات لم أخسر شيئاً، لأن الكنز الساكن فى خلايا الوعى واللاوعى لم يهجرنى حتى لو تشكل على نحو آخر، أفرح ثم أنفى ضعفى . ومؤكدا لذاكرتى التى كنت أتحايل عليها وأرتجيها أن تسعبنى وتكف عن معايرتى وهى ذاكرتى . أقول لى نفسى أن كل ما جرى هو تكاسل الذاكرة التى شاخت واعتادت الاستسلام للنسيان الكامل قبل أن يتم الصحو ثم يكتمل بعد تلك الغفوات الخاطفة.



## انكسار الخواطر

لو شئت الصراحة فسوف أعترف لك الآن بأننى رجل لم يعرف قدراته الفعلية أو إمكانياته الحقيقية فى أى مرحلة من مراحل عمره. رجل لم يعرف حدوده ليقف عندها بحيث لا يتراجع أو يتقدم إلا فى الوقت المناسب. ولعلنى قررت بعد أن استوعبت الدرس الصعب أو بعد فوات الأوان أن أكف عن السرحان فى أحلام اليقظة التى تسلمنى للأمنيات الوردية مخافة أن أتطوح فى آفاقها الرحبة التى لا تحدها حدود ثم أسقط على أم رأسى على صخرة الواقع الخشن بكل تفاصيله. أكابد المزيد من الشعور بالإخفاق والانكسار، ذلك أنه كان قد تأكد لى بعد كل المكابذات المجانية أننى رجل يليق به أن يعيش فى الهامش وبشكل أبدى. رجل لا يحق له حتى أن يحلم مجرد حلم فى أن يتطوع صديق طيب مثلك بتطبيب خاطره ولو ببضعة كلمات لا تكلفه شيئاً، لكنه لأنك صديقى القديم فسوف أبوح لك بتلك المصادفات التى حبستنى فى شبه دائرة محكمة لا أستشعر فيها إمكانيات التحقق كما أبتغى. أخرج من دائرة فأدخل دائرة أخرى، سلسلة من الدوائر المتلاحمة التى لاتتيح للبني آدم أى قدرة على الانفلات، وعندما يتأكد عجزى أستسلم لتفسير الأمر على أنه «قسمة ونصيب» كما كانوا يقولون فى سوق المواشى الذى شارك المرحوم والدى فى تجارتها زمننا فانكتب على أن أتعرف

على تفاصيل السوق ومساراته وسراديبه طفلا وصبيا وشابا، «قسمة ونصيب» كما كنت أسمعها في الحالات التي يرتفع فيها شأن البعض على حساب البعض الآخر، أو يتخطى خلالها الأصغر كل الأكبر. لم تكن هناك في سوق المواشى موانع أو قواعد يلزم مراعاتها أكثر من ترديد بعض الكلمات الطنانة عن الشرف والصدق والحمد والشكر للخالق على الستر والصحة والرزق الحلال، «قسمة ونصيب» يقولونها في أشد حالات العسر والخسران بغير مخرج ولا أمل في التعويض مثلما حدث مع والدى رحمه المولى جل شأنه في مثواه الأخير فقد فقد كل شيء في أواخر سنوات عمره. المال والصحة ووفاء الأهل والصحاب والشركاء. كنت أنا في مطالع الشباب مثل شعلة الأحلام الوردية لكن «القسمة والنصيب» تسببا في كسر خاطرى.

«البداية كانت طفلا يحلم ويتمنى أن تتاح له الفرصة كي يطير، يطير ويحلق في فراغ الكون دون أن يوقف مساره أحد. يرقب الدنيا من البعيد البعيد وبمحض اختياره يعود أو يسرح ليحط في دنيا غير هذه الدنيا ويتعامل مع ناس أو كائنات غير هؤلاء الناس أو تلك الكائنات». كنت قد تربيت إلى جوار سوق المواشى وكنت بينى وبين نفسى أحتج على سلوكيات ناسه بداية بالأب الذى لم يتورع عن ارتكاب بعض المؤامرات الصغيرة أو الكبيرة ليرتفع نجمه وتتسع تجارته ويذيع صيته. لكنهم انتقموا منه أو قل خانوه فى نهاية المطاف، أنزلوه أو قل أسقطوه بعنف إلى أسفل سافلين بعد أن جردوه من كل ما كان يتباهى به أو يحوزه. كسروه بضراوة وقسوة فلم تقم له بعدها قائمة، لكنه برر

سقوطه بنفس العبارة المكررة «قسمة ونصيب» وأضاف إليها تفسيراً من عنده ليريح نفسه أو يضحك علينا وعلى نفسه «الدنيا انقلب ميزانها .. واطيها ركب فوق عاليها وتاهت فيها الأصول» صدقته وتأسيت لحاله دون أن أجرؤ على البوح له بأننى كنت أتوقع له هذه السقطة ولا أجرؤ على تحذيره منها. وهل كان من الممكن أن أحذره وأنا ابنه الصبى أو الشاب الطالع من صلبه؟ كانت الدنيا قد دانت له وطابت وزهزمت من حوله فانسطل بفعلها وعاشها بنصف وعى، تماماً مثلما كان يجلس وسط أتباعه حول رابية النار الملتهبة يرصونها له ببراعة فوق أحجار المعسل المغموسة بأنقى وأثمن عبوات الحشيش من خيره وحرماه، كنت بالقطع أخافه وأنتظر مشوار الرجوع إلى دارنا بالقرب من مدخل السوق وقد انقسم هو على نفسه نصف واع ونصف مدرك، فأتجاسر وأسر له ببعض مخاوفى عليه فيدمدم بأنصاف ردود لا تشفى القلب الحيران ولا تبعث الطمأنينة فى العقل القلقان، لا أخفى عليك أنه كان فى بعض الأحيان يفاجئنى ويبهرنى بكلام أشبه بكلام الحكماء، وبعيدا عن تلك الروايات المتواترة حول سيرة النبى محمد أو قصة أبى زيد الهلالى سلامة التى كان يحفظها عن ظهر قلب ويدندن بها فى ساعات النسوة رغم عجزه عن القراءة والكتابة، وبعيدا أيضا عن تلك الأمثال التى كان يقولها بالمقاس فى أى المواقف فتبدو مثل ثوب محكم التفصيل لابس على الحالة دون زيادة أو نقصان، كنت أقول لى نفسى أنه نصف نبى أو أنه عارف بكل ما يدور حوله من ملاحيب لكنه يتغابى بإرادته واختياره، وقد كان هو الذى أفهمنى فى لحظة صفو نادرة أن

لكل شيء، في هذه الدنيا حدودا لا يحق للبني آدم أن يتخطاها حتى في أحلام يقظته، وأفادني بأنه يحق لي عندما أكبر مثلا أن أدخل مدرسة الطيران بالواسطة بدلا من السرحان العبيط في أحلام اليقظة، وأكد لي أنني لو دخلتها ف سوف أتعلم الطيران على أصوله، وأنني بالقطع سوف أتسلم طائرة حقيقة ويسمح لي بأن أحلق بها في مجالنا الجوي أو في أي مجال جوي آخر شريطة أن أحصل على الإذن أو الموافقة من أصحاب المجال الجوي الذي أنوى التحليق فيه بطائرتي. ورغم كل التفاصيل التي أفادني بها فقد كنت أطمع في المزيد، ورغم عدم ترحيبي من داخلي بفكرة الطيران في حدود محددة أو مجال مسموح بعيدا عن كل المجالات غير المسموحة، إلا أنه زود طموحي ورسخ رغبتى في الطيران في مستقبل الأيام. ذاكرت تنفيذا لوصاياه وتفوقت بأكثر مما كان يتمنى لي أو يتوقع مني، لكن النجاح بتفوق لم يكن يكفي، كانت هناك إجراءات يلزم اتباعها وقد تطوع من ناحيته بعمل كل الإجراءات ليتحقق ما كنت أحسبه حلما وريدا. صرت على الباب أنتظر، لكن «القسمه والنصيب» أو ماجرى لي لم يكن بسبب الكشف الطبى الذى خوفونى منه فى البداية. بل إنه كان هناك فى تاريخى موقف لم أكن أحسبه سرا خطيرا مخفيا بحساباتى على الأقل وراء إبعادى. صحيح أنهم ادعوا أن نظرى ضعيف بأكثر مما تسمح به لوائحهم، وبأن قلبى خفيف خفيف بأقل مما يليق بطالب يتعلم الطيران. وأضافوا أيضا أن جهازى العصبى فلتان ومشدود وغير مأمون العواقب، لكن ما لم أكن أعتبره سرا خطيرا مخفيا وانكشف كان وراء إبعادى من كشف المقبولين. وكان الرجل الذى وعدنا

بدخولى عالم الطيران هو الذى فضحهم. كان الرجل قد تسلم المقابل يدا بيد من أبى فى حضورى على سبيل الرشوة. لكنه عندما فشل فى إدخالى لم يخف علينا شيئاً مما سمعه أو رآه فى لجنة التصفيات الأخيرة، أيامها كانت الرشوة منتشرة ومألوفة ومحددة بالأرقام، وكان الرجل الذى أغضبه ما جرى له ولى يقسم ويؤكد بكل الأيمان أننى كنت سليماً من كل النواحي الصحية وأننى كنت أملك نظراً حاداً وقلباً صالحاً يعمل بكفاءة وجهازاً عصيباً منسجماً لا تشوبه شائبة، وأضاف أنه عمل كل ما كان يلزم وأكثر لإدخالى لكنه لم يفلح، أكد لأبى أن حجة الكشف الطبى باطلة، وبدأ لى ولأبى أن الرجل كان صادقاً فى كل ما قاله، وعندما أخرج المظروف الملفوف ليرده لأبى أشفقت عليه، كان قد همس بأن المظروف يحتوى على المبلغ الذى أخذه من أبى على سبيل الرشوة، لكن أبى أزاح بيمينه تلك اليد الممدودة فى حسم رغم إلحاح الرجل الذى كان متحيراً فى أمر نفسه، فوضع المظروف فوق حافة المكتب بينما يواصل حكاية كل ما دار فى لجنة القبول، صحيح أنه أخذ المظروف غصبا عنه كما كان بادياً عليه بينما كان يغادر المكان، لكنه أخذه تنفيذاً لرغبة أبى التى كان فيها شيء من الوعيد المخفى الذى لا بد أنه أخافه من تاجر كبير ومحسوب حسابه فى سوق المواشى وله علاقات بأكابر البلد يمكن مثلاً أن يتسبب له فى فضيحة تضيع مستقبله ككاتب فى مدرسة الطيران، ولأن أبى اعتاد فى سوق المواشى أن يدفع قبل أن يقبض مطمئناً بأنه سوف يكون كسباناً فى كل الصفقات وكل النهايات، وبغض النظر عن سمسار صغير كذاب يلعب على الحبلين

أو صبي من صبيانه يسعى للقفز خطوة إلى الأمام فى سوق المواشى على حسابه . فماذا تكون قيمة الرشوة ليستعيدها من رجل خدمه من حيث لا يدري عندما كشف له أكاذيب الأكابر الذين كانوا قد وعدوه وأكدوا وعودهم ؟ المهم أنه اكتشف يومها أننى شخص غير مرغوب فيه عند من يتولون أمور الطيران والتحليق فى الفراغ عاليا عاليا لأتمكن من مراقبة العالم من فوق . كانت لديهم تلك الأسباب الواهية التى بدت له عارضة وهامشية ولا تسوغ لهم ذبح حلم عمرى أو إزاحتى بعيدا عن مدرستهم مكسور الخاطر لأول مرة فى حياتى.

باح الرجل لأبى بأننى على المستوى السياسى غير مأمون الجانب فتذكرت على وجه الخصوص جماعة الخطابة التى كنت عضوا فيها والتى كان يشرف عليها الأستاذ التوابتى وكيف أنه كان يباهى بى قبل أن يقدمنى لأصعد على المنبر الصغير الخاص بجماعته . أصعد مزهوا بنفسى ثم أخطب فى الحاضرين عن أى شىء يخص الوطن . كنت أبدو لهم متحمسا ومخلصا فى دورى كخطيب مفوه وفارس كلمة لا يشق له غبار . وكانوا يصفقون فأحييهم وأنزل بينما يصعد الأستاذ التوابتى مكانى ليمتدحنى ويؤكد لهم متباهايا أنه اكتشفنى ، كان فى الفصل يقرأ للتلاميذ ما يتيسر من موضوعات الانشاء التى أكتبها . ويطلق على اسم مصطفى كامل بدلا من مصطفى فاضل الذى هو اسمى الحقيقى . كنت أقول لنفسى وماذا يهم يا ولد ؟ كامل أو فاضل ؟ المهم هو الاستعداد لخدمة الوطن .

«كانت جماعة الخطابة إذن هى شرك الفضوح ؟ الخطابة يعنى سياسة . والسياسة خطوات تخطوها على مهل عكس اتجاه الحكومة

عميلة الإنجليز، وأنت بنفسك مشيت في اتجاه الحارة السد التي توصل إلى منطقة المستبعبدين فاحتمل».

بدا لي أن أبي كان يدمدم بمثل هذا الكلام ونحن في مشوار الرجوع من «المحششة» بينما أنا نصف غائب ونصف واع لأنه سمح لي لأول مرة في حياتي بأن أشاركهم الأنفاس، كأنما كان يسعى لتغيبى أولتنيهي، تغيبى عما فات وانقضى وتنيهي بما هو آت، وأنا من ناحيتي راجعت نفسى بينى وبين نفسى دون أن أفقد ثقتي في قدراتي. قلت لروحي أن الأحوال سوف تتعدل إذا عدلت أنا مسارى، وراجعت كل الاختيارات وتوصلت لنتيجة مؤداها أن الزعامة أفضل من التسكع فى الفراغ طائرا بلا هدف، وتذكرت كيف كنت فى المدرسة الثانوية زعيما بالفعل بسبب الخطابة، كنت عندما أقف فى طابور الصباح وأهتف ولو بصوت خافت:

– يسقط الاستعمار

– يسقط الاستعمار

– الجلاء بالدماء

– الجلاء بالدماء

يرددون الهتاف ورائى ويسارعون بحملى على الأعناق، نخرج من باب المدرسة الذى يفتح على مصراعيه وندور فى جنبات المدينة، وبرغم وجود الزعامات فى المدارس الأخرى إلا أننى كنت أشعر أننى أكثرهم تأثيرا وقدرة على صياغة الهتافات التى تليق بما كان يجرى حولنا. كنت أتعرض لمضايقات الشرطة وضربات الهراوات والعصى. لكننى كنت أقف فى الفرار منهم، يطاردنى العساكر بتوجيهات الضباط

لكنهم يعجزون عن اللحاق بى . ومرة وحيدة أمسكونى واقتادونى إلى مركز الشرطة مع العشرات من زملائى تلامذة المدارس وزعمائهم ، ضربونا بالعصى الغليظة فاتهمتهم بالهتافات بأنهم عملاء ، للاحتلال الإنجليزي فردد التلاميذ كلماتى رغم وجود العساكر والضباط وآثار الخبطات على الأصداع والأبدان . تحول المركز إلى صرخات تتوجع واتهامات تتعالى وتنفذ إلى الشارع . هل كان دخول الناس مبنى المركز فى تلك الظهيرة الشتوية مصادفة أو أنه كان استجابة للهتافات الوطنية والتحريضات التى كنت أصوغها عبارات موزونة ومسجوعة فيردها الناس داخل وخارج مبنى المركز فى ذلك النهار؟ كان أبى قد وصل ، كتب مثل كل الآباء تعهدا بحسن تربيتى ورعايتى ومتابعتى ، وفى الركن أوصاه المأمور بأن يحافظ على حياتى بأن أكف عن تأدية دور زعيم المدرسة أو تقمص شخصية الزعيم مصطفى كامل الذى أسر له بأنه مات مسموما بمؤامرة إنجليزية غير معلنة ، وذكره بأن الإنجليزي مازالوا يحكمون البلاد من وراء القصر والحكومات المتتابة ، كان الرعب المرسوم على ملامح أبى يخيفنى لأنه صدق كل ما سمعه ، وعيئا حاولت فى مشوار الرجوع أن أوضح له أن المأمور يخيفنا ويزرع فى قلوبنا الرعب لنكف عن المظاهرات ، لكن أبى كان يسمع ولا يعلق ، ولعله بعد تلك الواقعة زود جرعات المخدر التى كان يدخنها . ولعله بدأ مشوار الانحدار نازلا ومتنازلا عن مكانته التى كان قد بلغها بالجهد والحيلة والاحتياال أحيانا .

قلت لنفسى بينى وبين نفسى : أدخل كلية الحقوق لأكون زعيما حقيقيا ، لكن أبى اعترض بشدة ، كان يتخيلنى طبيبا بشريا أو حتى بيطريا ، كان من الحتم أن تنتصر إرادة الأقوى . وكان أبى هو الأقوى

لأنه أخذ أوراقى وقدمها بنفسه إلى كلية الطب . ومن ناحيتى لم أكن أهتم بتلك الدراسة ، كأننى كنت أعانده وأعاند الحكومة وأعاند نفسى أيضا ، قضيت ثلاث سنوات بطولها وعرضها دون أن أتعلم شيئا فى مدرسة الطب غير أعراض الزكام والحمى الروماتيزمية ونسب المصابين بالبلهارسيا فى مصر المحروسة ، وربما بسبب كراهيتى لمنظر الدم لم أحضر واحدة من محاضرات التشريح أو أتعلم تطهير الجروح حتى ولو كانت سطحية ، فشلت ببراعة أو بعناد بغل استرالى حتى فصلونى ، سكن الحزن قلبه ولم يوجه لى عبارة لوم أو يفكر فى توبيخى لأننى خيبت أمه وأنا ابنه الوحيد ، لكنه فى واحدة من تلك الأمسيات بينما كنا راجعين من تلك الجلسة المعتادة حول الدخان الأزرق باح لى بأن خسارته زادت عن كل توقعاته ، لم أدخل معه فى التفاصيل ، كنت مشغولا بنفسى وما أزال أحلم بكلية الحقوق متصورا أنها السبيل الوحيد لأكون زعيما . ومادمت قد فشلت فى الطيران ولم أقدر على النجاح فى الطب فلا بد أنه سوف يوافق مكرها على دخولى كلية الحقوق ، لكن أبى لم يتح لى فرصة إكراهه على عمل شىء لا يرضيه ، كانت كل الأشياء التى نملكها تتطاير مثل كل الأحلام الوردية ، كنت أراه منكسرا وأرانى منكسرا مثله دون أن أتمكن من مساعدته أو مساعدة نفسى . وكانت أحلام الزعامة التى لازمتنى فى سنوات الصبا ومطالع الشباب تنظفنى حولى على مهل . أو شك أن أسخر منها قائلا لنفسى بينى وبين نفسى «قسمة ونصيب» بمثل ما كان يقول هو فى حالات الوعى أو نصف الغياب .

دون مقدمات أو بمقدمات مخفية رقد أبى فى فراش المرض متأماً ومتوجعا قبل أن يصل إلى زمن الغياب شبه الكامل عن الوعى . يطول رقاذه وينقضى عامين وأنا أشقى فى أحط الأعمال داخل سوق المواشى راضيا بإهانات صغار الصبية القدامى وقد تحولوا إلى أنصاف تجار . كنت أحتمل سخرياتهم من ابن المدارس الذى خاب أو الولد الذى افترى على نعمة ربه ففصلوه من مدرسة الطب أو ذلك الولد الذى كان يتحدث فى صباه عن طائرة يملكها ويلف بها أركان الدنيا . وكنت أحتمل مضايقاتهم لأننى لم أكن أعرف سكة أخرى للاسترزاق خارج سوق المواشى . وكان من الحتم أن أتكسب أى قروش مهما كانت قليلة لأدبر لِنفسى وله اللقمة وبعض أصناف العلاج المطلوب لحالته لأنه كان قد أفلس بالفعل ونسى الناس فى سوق المواشى هيبته وتاريخه معهم . أقول لِنفسى بينى وبين نفسى شيئا من كلامه القديم «الدنيا انقلب ميزانها . واطيها ركب فوق عاليها ... وتاهت فيها الأصول» وأقول لِنفسى مفسرا أن ما جرى لنا «قسمة ونصيب» كان يطيب لى أن أتأمل وجوه أنصاف السماسرة وأنصاف التجار بينما يتفحصوننى بشماته . يذكرهم أى صبي جديد باسم أبى مكملا لاسمى فيترحموا عليه حيا قبل أن يموت . أغتاظ ولا أملك القدرة على الدفاع عنه . كان على أن أتحمّل كى أرعاه ولا أتوجع . كان يزيدينى ألما وانكسارا أن أعائش بعد منتصف الليل إفاقته نصف إفاقة . يحادثنى ويوصينى بأن أتعلم الحساب والحاسبة إلى جانب الطب الذى انتهيت من دراسته بحسب ما كان يتصور كى أحمى ثروته من لوصية الكتبة الأجورين . ينبهنى ويوصينى بعدم

الاهتمام بالسياسة فى مستقبل أيامى وبيذكرنى وهو نصف غائب بآننى سوف أرت تجارته الرائجة فى سوق المواشى وأنه يلزم أن أحافظ عليها وأنميها لأكون جديرا بحمل اسمه ومسئولا أمام المولى جل شأنه عن تربية إخوتى الصغار مع أولادى الذين هم أحفاده بعد أن ينقضى أجله ، يوشك أن ينفلت عيارى وأواجهه بالحقيقة لأريحه من الأوهام التى سكنت فى خياله بأنه مازال يملك نفس المال أو نفس الاسم الرنان فى سوق المواشى أو أن له خلفه أخرى غيرى أو أحفاد أنجبتهم فى غفلة من أمر نفسى ، لكننى كنت أتراجع خوفا عليه من صدمة تعجل بموته إذا اكتشف حقيقة ما صار إليه حالنا ، وهل كان يحق لى أن أكون صادقا معه وهو على فراش الموت بعد أن بارت تجارته وتراكت ديونه قبل أن يشهروا إفلاسه وهو فى كامل غيبوبته بينما فشلت أنا فى إكمال تعليمى ؟ كنت أجاريه وأسايره وأفعل ما كان يبدو لى لائقا برجل مكسور الخاطر خلفا للدنيا رجلا مكسور الخاطر ليعيش فى هامش الهامش باختياره متأملا ومتباعدا عن كل المطامح

\*\*\*

## لعبة في المنام

كان الأمر يبدو في البداية لعبة، لعبة فرار وإمساك ، والبارع البارع هو من يفر وينجح في الزوجان، لم يكن الأمر يخلو من دعابة تستحق الضحك وتبعث نوعا من النشوة إن كان للنجاح في الفرار نشوة، ولا بد أن هناك أنواعا من البهجة أو النشوة الناتجة عن النجاح في الفرار برغم أن عائد من يهرب معدوم، لكنه على أي حال نوع من النجاح يؤكد شكلا من أشكال القدرة.

كان هو كما بدا لي في « المنام / الكابوس» أشبه بممثل فاشل لم يتحقق بالتمثيل على خشبة مسرح أو على شاشة تلفاز أو سينما ولا حتى على موجة إرسال إذاعي، ممثل لم يعترف بموهبته أحد ولا صدق هو نفسه بأنه ينتمي لفن التمثيل بأي صلة، كان يؤدي دوره دون قصد أو على نحو طبيعي كما يقولون، لعلهم لو اكتشفوه كان يحق لهم التباهي بالعثور على النجم المستحيل، لكنه لم يكن من الممكن بكل الحسابات أن يتحول إلى ممثل محترف تشيد بقدراته الأفواه والأقلام، ربما لأنه قبل كل شيء سوف يرفض حفظ أي نص لأي كاتب مهما علا شأنه لأنه يكره فكرة الكتابة ويكره الكتاب، وسوف يرفض طاعة أي مخرج أو يلتزم بالحضور في مواعيد التصوير أو التسجيل، يرى نفسه فوق كل هؤلاء، ليتأكد الجميع أنه خصم لا يستهان به ويفعل كل أفاعيله بحسب إرادته الحرة

وباختياره المطلق، ينطق بالكلمات على النحو الذى اختاره لنفسه ويقول العبارات التى يصوغها عقله لينطق بها لسانه، يتحرك فى الفراغ، كل الفراغ الذى أوهم نفسه بأنه امتلكه ليتحكم فى كل ميادينه ومبانيه المطلة على شوارعه وحواريه وأزقته، كنت فى منامى لسوء حظى قد شهدت المصير التعس الذى انتهى إليه رجل مسالم ومعدوم الحيلة وقع عليه اختياره ليلاعبه لعبة المسافة أو العسكر والحرامية. كان المصير شنقا أو خنقا أو ما شابه ذلك.

كان حلما خاطفا انقطع إرساله بحركة بدنى للرقاد على جانبي الأيسر، وسوف أحدثكم بالقطع عن الأضرار التى أصابتنى بسبب رقادى بغير قصد على جانبي الأيسر، ذلك أننى كنت أغطس فى سراديب النوم بعد تناول المهدئ وأستسلم فوق الفراش ساعة أو ساعتين فى أقل تقدير مهدود الكيان مفكوك الأوصال راقدا على ظهري، يسرح دماغى فى ردود أفعال عيالى وزوجتى إذا فوجئوا بموتى بعد فترة قصيرة أو طويلة، وكثيرا ما كنت أحس بها وهى تدخل الحجرة التى أرقد فيها وتخطو ناحيتى بحذر بينما أنا غاطس فى بحر النوم فأستيقظ أو أكون مازلت أتقلب قلقا أو موشكا على النوم فى تلك اللحظة الفاصلة بين الرقاد وغفلة النوم، أنتفض غالبا على الرغم منى فتبسملى هى، ربما تربت على كتفى أو صدرى وكأنها تبعث لى رسالة طمأنة أحتاج إليها لأعاود الدخول فى سراديب الغفلة، كنت أفسر الأمر على أنه نوع من توقع الموت - موتى - من ناحيتها، عشرات المرات وربما مئات المرات كان يحدث نفس الشئ وبنفس تفاصيله تقريبا، فإذا قمت منتفضا سألتنى

عن حالتى وما أحس به ، فى السابق كنت أتمكن من الكلام وربما الوصف لبعض تفاصيل ما كنت قد رأيت فى منامى أو غفلى وأنقطع بدخولها ، لكننى فى العامين الأخيرين صرت لا أرغب أو أستطيع الكلام أو الوصف دون سابق ترتيب منى أو تدبير وعلى نحو بطئ وغير ملحوظ ، حدث أننى صرت لا أرغب فى الكلام أو الوصف ، وفى أحسن الأحوال كنت أكتفى بالإشارة مثل أى أبكم مدرب وبارع فى لغة الإشارة أطلب منها أن تكف عن طرح الأسئلة ، تجلس إلى جوارى وتتأملنى ، ومن داخلى كنت أغضب وأقول لنفسى مثلا أنه من الممكن أن تكون هى قد لاحظت علامات الموت على ملامحى أو بدنى وأنها بالقطع جلست لتشهد الفصل الأخير من لعبة الحياة والموت . أغضب وربما أكتم غضبى أو أعبر عنه بزفرة احتجاج ، ربما لو أسعفتنى القدرة أقوم وأخرج من المكان وهى فى أعقابى أو جالسة فى مكانها تتأملنى بلوم أو دهشة . وربما أبقى فى مكانى فترة ثم أعاود الرقاد فتترك هى الغرفة وتسحب وراءها الباب . أتذكر أن أباهما مات فى طفولتها المبكرة جدا فتولت أمها تربيتهما ، انقطعت لها وما كفت عن الحسرة عليه لأنه مات فوق فراشه دون أن تصدر عنه صرخة أو نداء أو صوت غير مألوف ، وأنه لم يتركها وحدها وحيدة بل ترك طفلته وحيدة أيضا دون أخ أو أخت أو حتى عم أو خال يعتمد عليه أو يساعد فى رعايتها لو تصادف أن ماتت أمها أيضا فيكتمل يتمها ، أستنتج أن فجيعة مثل هذه فى حياة الأم كانت محورا أساسيا فى حكاياتها للبينت عن مصاعب الحياة بعد رحيله عنهما فى صمت مطلق ، وأقول لنفسى أيضا إن الخوف من الموت عند زوجتى كان

ميراثا لا تملك منه فكاكا. وربما بسبب ذلك تحولت أنا إلى موضوع للتأمل والتوقع من غير قصد، لكننى برغم كل تلك التصورات كنت أستشعر وجعا يصعب الاحتجاج عليه ويناسبه الكتمان رغم كونه موجعا وبشراسة. وربما لا يخفف منه كل طقوس الحنو والتعاطف الصادقة بسبب تلك المخاوف المرسومة فوق تقاطيعها.

وفى المنام رأيته مرة أخرى وقد اختارنى خصما له بعد أن تسبب فى قيامى مفزوعا بسبب رؤية المصير التعس الذى انتهى إليه من كان قد اختاره قبلى ليكون خصما له. كان لا بد أن أتوخى الحذر، أنام على جانبي الأيمن. لكن الأرق ناوشنى قبل أن أتوه فى الغفلة، لكننى رأيته يختارنى خصما يطيب له مطاردته. كأنما كان يختبر ذكائى ومقدرتى على مراوغته والفرار منه، ولعله كان على نحو غامض يعدنى بمصير مبهج إذا أفلحت ونجحت فى الهرب منه ولو مرة واحدة، أكد لكل من كانوا يشهدون اللعبة أنه يحترم الذكاء والأذكىاء، صحيح أننى فى الصحو لم أدع الذكاء الفائق، لكننى كنت أعرف أننى أنتمى إلى فصيلة الأذكىاء فى المنام. ربما كنت واهما أو كنت محقا لكننى كنت أرانى على هذا النحو من فصيلة الأذكىاء، وربما بسبب ذلك لم أتخوف من لعبة الفرار من الحصار. ربما بدا لى الأمر هينا لأن النوم يحزر الإنسان من بعض مخاوفه التى تلازمه فى صحوه.

كان على أن أرمح فى طول المدينة وعرضها عارفا أنه سوف يطاردنى بكافة الحيل والألاعيب، كنت قد تخلصت من إحساسى بالخوف أو الخطر وكأنتى شاب يافع مازلت، أفر وأفر وهو فى أعقابى، تغرينى

على مواصلة الرمح نشوة الانفلات من كل الفخاخ المنصوبة والشراك المحفورة التي أتخطاها، هل كانت تتبدى لى فى الأفق القريب بوادى حياة هادئة أو مصير مبهج لو أنه أوفى بوعده؟ ربما. لكنه كان وهما فى منام جعلنى أطرح على نفسى سؤالاً لا يحتاج إلى ذكاء خارق للإجابة عليه. كنت أسمع صوت نفسى وأنا أكرره مستنكراً :

- يا عبيط... متى أوفى الخصوم بوعودهم؟

وأرد على نفسى بنفسى:

- يا عبيط.. ومتى توقع العقلاء أن يمنحهم الخصوم مكافآت لأنهم بارعون؟

لكننى كنت أفر ويحاصرني، أفر ويحاصرني وأعاود الفرار. وكان هو قد أعلن نجاحي فى كل الاختبارات، كانت عيون الناس تتابعني بإعجاب وأصواتهم تهنئني على النجاح فى الخلاص من كل الفخاخ ووسائل الحصار. ومن بين الناس اقترب منى ثلاثة من الشباب المتحمس، شدوا على كفى ثم ربتوا على ظهري وصدري وجعلوا يمسحون على رؤوسهم وأبدانهم بكفوفهم التى لمستنى. كأننى صرت ولياً من أولياء الله. تذكرت الحسين بن على والسيد البدوى فأدهشنى الأمر. كانت هناك عربة «حنطور» فسيحة ومكشوفة تجرها أربعة خيول عربية بيضاء ويزينها الورود التى تفوح روائحها العطرة فتسحر الأبواب. ساعدونى بكل الأدب وأركبونى، أحاطونى بينما تعبر العربة الشوارع والميادين حيث كانت آلاف العيون تتابعنى بكل الإعجاب بينما الكفوف تصفق والحناجر تهتف فتأخذنى نشوة النصر وألوح لهم واقفا ومتخليا

بإرادتى عن مقعدى الوثير، يهلل قلبى مع الناس فرحا لأننا تخلصنا من فترة الحصار والفرار. وقبل أن ينتهى موكب المنصور الذى كنته بدا لى أن عجوزا عاجزا ومحنيا على نفسه يشير بعصا يتوكأ عليها ناحيتى يستمهنلى، كانت له لحية بيضاء كثيفة وطويلة تتطلب حسن التقدير والرعاية. أمرتهم بشهامة المنتصر أو أشرت عليهم بالوقوف ليركب إلى جوارى، لكنه بعد أن ركب رأيت فيه وجه الخصم العنيد بكل تقاطيعه وقد انفرد عوده وانخلعت لحيته المستعارة ثم اتسعت أشداقه بينما يضحك بشماتة لأنه أسقطنى فى أضييق فخاخه وتأكد من انتصاره، لاحظتها تأملت وجوه الشبان الثلاثة الذين يحيطوننى فاكتشفت علامات الشبه الشديد بينهم وبينه، كان فخا محكما ومفاجئا لم أعمل حسابه، وكان السقوط مدويا بحسابات الجميع. لكننى لم أستسلم. لعلى طلبت العدل المستحيل فى المنام أو حاولت توسط واحد من أولاد الرجل ليوضح له أننى بكل الحسابات كنت قد أفلتت من الحصار وأننى فررت بشرف وراوغت بشرف فأجلت للحاق بى أكثر مما كان الكل يتوقع. كان الشاب يتسمع كلماتى ويزنها بميزانه فتبدو له موزونة. تبدو على وجهه علامات تعاطف وموافقة على أفكارى، يتركنى محاصرا بالشابين الآخرين ويقترّب من الرجل هامسا فى أذنه بكلمات لا بد أنها كانت فى صالحى لكن الرجل يرفض بعناد بغل مواصلة الاستماع فيرجع الشاب ليستنطقنى لأقول له المزيد مدافعا فيبدو متعاطفا أكثر ويشير إلى بأن ارتاح. يتركنى فى حراسة شقيقه ويذهب إلى الرجل من جديد. يقول بصوت مسموع أنه متعاطف مع حالتى وأن شقيقه اللذين يحاصرانى

متعاطفان معي مثله. يضيف بصوت مسموع أن قوانين العدل الدولية والأساليب الديمقراطية الحقيقية في صفى من كافة الوجوه، لكن الرجل كان ينظر ناحيتي بغل وكراهية عمياء. ربما قال شيئا يفيد أنني أوشكت على قلب موازين الدنيا لأننى حصلت بالحيلة أو السحر على تعاطف أولاده فيوبخهم ويتهمهم بالغباء. يطرقون خجلا ويؤكدون التزامهم بالطاعة له دون أن يتخلوا عن الدفاع عنى. يدفعوننى دفعا لأن أذافع عن نفسى فى مواجهته. أفعل بعد تردد وأجاهد أن أوضح له أن الأمر كان خدعة من خارج قوانين لعبته هو بحسب ما اتفقنا عليه فيسخر منى ويقول إن الصراع على البقاء ليست له قوانين وإن الغفلة هى الغفلة والغباء هو الغباء بدرجات متفاوتة. يعترف ببعض ذكائى لكنه يقلل من قيمته لأننى فى نهاية اللعبة وقعت فى واحد من فخاخه المنصوبة حولى. يذافع بعض الغرباء عنى بأصوات خافتة ويدافع عنى عياله بأصوات أكثر خفوتا لكنه لا يستجيب. يطالبنى البعض بمعاودة المحاولة معه لأفقت من عقابه البشع. ينصحنى أكبر عياله بأن أتودد إليه أو أداهنه وأعترف له بالنصر قائلا إن مثل هذه الأشياء تجعله أكثر ميلا للمسامحة والعفو. أتردد أولا ثم أبدأ فى شرح حالتى معه مؤكدا أنني لم أكن أضعه فى خانة الخصوم أبدا. أوضح له أن الأمر كان من بدايته لعبة فيذكرنى بأننى رأيت بعينى رأسى المصير التعس الذى وصل إليه الرجل الطيب الذى اتخذه خصما قبلى. يسخر منى أكثر فيتبدى لى جلفا دمويا بلا مشاعر. أحاول مرة أخرى فلا يحيد عن موقفه المعادى لى. أشعر أنني نزلت ونزلت ثم تنازلت بأكثر من حساباتى عن نفسى

استجابة لنصائح عياله الذين أعلنوا كامل الولاء له والاستعداد لتنفيذ كل أوامره فى نهاية الأمر بغض النظر عن بعض الخلافات الشكلية التى تسبب اللعبة فى عيون الناس الودعاء.

يتبدل حالى فألعنه . أبصق على ملامحه فيسمح آثار البصقة بكل التواضع الزائف . يشهد الجميع على عصبيتى وانفلات لسانى بالشتائم اللاذعة ، لا أتوقف رغم حصارى عن الصراخ وأقول للجميع إننى لو كنت فى شبابى القادر ما تمكن منى أبداً وأنه لو صادفتنى فى تلك الفترة لكسرت أنفه أو أضلعه أو رقبته لأننى كنت فى شبابى بطلا للرماية والسباحة وركوب الخيل . وكان من الممكن أن أصرعه فى أى ميدان . أكشف له ولهم صدرى لأريهم آثار جراحة القلب المفتوح التى أجريتها . يتعجب الحاضرون من قدرتى على تخطى كل المصاعب التى صادفتها برغم ما وصلت إليه حالتى ، لكن الرجل كان يبدو بليداً وشامتا إلى أبعد حد . عيناه تنضحان كراهية ووعيدا قبل أن يشرح لهم ولى بنيراته الباردة مصيرى التعس الذى ينتظرنى . تنقلب موازين الأشياء فيهللون استحسانا بينما يشرح لهم الأسلوب المبتكر الذى سوف يتم بمقتضاه خنقى أو شنقى ، كنت أنا قد تماديت وحدى فى التهوين من قيمته وقيمة الزمن الذى أتاح له الفرصة ليتحكم فى مصيرى على هذا النحو بسبب أننى تجاسرت ولاعبته . وكنت أدعوهم لمقاومته وكشف مفسده بأجراً العبارات فكان يشهدهم على انفلاتى ويستنكرون كلماتى . أتحوّل إلى شهيد على الحافة بين الموت والحياة ، شهيد مات بالفعل لأنه أفرغ بالكلمات شحنات الغضب والاحتجاج لكنه لن يفلت من تنفيذ العقاب

فى البدن لإزهاق الروح إن كانت ما زالت هناك روح تحتل مزيدا من الإزهاق . لعلى كنت قد سألت الرب الخالق لبيعك لناس الأرض بعض عدله بمثل ما يبعث إليهم الأرزاق والأعمار والمصائر واثقا من استجابته للدعاء الصادق الذى يتطق به لسان العبد المؤمن.

كان الرجل هناك ما يزال وقد أحاطنى أولاده بكل القيود وبكل الغلظة التى لم أكن أتوقعها منهم ، لكنهم على ما بدا لى لم يشفوا كل غليله فراح يسخر من رقة مشاعرهم ونعومة أناملهم . كنت مأسورا وقد انفض الناس من حولى ولم يعد هناك فى الميدان غيرنا . أنا وهو والقيود وعباله الثلاثة الذين صاروا يتشابهون معى فى كل شىء ، الملامح وقسوة القلوب والرغبة فى الانتقام بكل ضراوة . هل كادت اللعبة تنتهى لصالحه بخنقى أو شنقى على نحو غير مسبوق ؟ ربما استشعرت ذلك لفترة خاطفة ، لكننى بحركة عفوية أفلت نفسى من الكابوس فأعادنى الصحو المباغت للحياة وحررنى .



## السعار

ربما لم أكره فى حياتى كلبا من كلاب هذه الدنيا الواسعة قدر كراهيتى لذلك الكلب الذى فاجأنى بنباحه الشرس وأنا أقف أمام بيت أبى، أنا نادى وأنا أشعر بالخوف فيوشك صوتى أن يتوه ولا يظهر له أى أثر بسبب ذلك النباح المتواصل العنيد الذى يطردنى من المكان طردا، كانت زوجتى تقف ورائى وهى تحمل الولد النائم على صدرها، تتباعد إلى الوراء فأتباعد مثلها كلما قفز الكلب المربوط بسلسلة ناحيتنا وهو ينبح، ينبح ويقفز فنتراجع إلى الوراء خطوة جديدة أو خطوتين مخافة أن تنفك السلسلة أو تنقطع، ولولا الخجل لاستدرت راجعا من حيث جئنا لأتخلص وتتخلص هى أيضا من الخوف، ربما لم يطل الوقت بالفعل لكنه بدا لى أنه كان كافيا لإفساد فرحتى المأمولة وأنا أفاجىء أبى بزيارته ومعى زوجتى وطفلى لأول مرة وقد تكبدنا مشقة السفر الطويل والسفر القصير فى سخونة الشمس، سمعت صوتة الأمر من الداخل قبل أن أراه بجلبابه الأبيض وطاقيته البيضاء، والكلب الشرس يستجيب له ويكف عن النباح، يستدير ويهز ذيله ثم يقعى على الأرض بين ساقى أبى الذى يتباعد عنه ويتجه ناحيتنا، يفتح صدره بحنو ودهشة وفرح فأوشك

أن أنسى في المسافة بين عتبة البيت وعتبة حجرة المسافرين كل ما فعله الكلب.



كنت أشعر بنوع من الزهو وأنا أشهد فرحة أبى بالولد الذى كان يحاول أن يخطو بضع خطوات دون مساعدة. يمشى فيصفق له أبى ثم يحمله بكلتا يديه ويرفعه إلى أعلى، يقذفه إلى ما فوق ثم يلتقطه والولد يضحك ويكركر بينما زوجتى تهتز وتلهث مثلما تفعل قبل أن تنوى الاعتراض على أى شىء. كان الولد قد فهم اللعبة، يمشى بضع خطوات دون مساعدة من أحد ثم يتلقى المكافأة أحضانا وقبلات وارتفاع إلى أعلى ثم التقاط، وعندما جاء الكلب ليشارك لم يفكر أبى فى طرده. وضع الولد فوق ظهر الكلب فضحك وكركر. مد يديه وشد أذن الكلب فمال الكلب برأسه ولم يعترض، جذب شعره وربما رفسه بقدمه والكلب مستسلم تماما وساكت فى وداعة. كأنه كلب آخر غير ذلك الذى أخافنا منذ وقت قصير. كان فى واقع الأمر كلبا بارعا وذكيا يؤدى دوره بإتقان، ولا بد أنه كان من تلك السلالات النادرة التى يستعين بها البوليس فى كشف الجرائم والتى نراها فى الأفلام الأجنبية فنشعر بالرهبة ممزوجة بالانبهار.



للتخلص زوجتى من مخاطر لعب الولد مع الكلب بحساباتها فكرت واستدعت قطتها الوهمية. نونوت عدة مرات فانكمش الولد بسببها

وكف عن الحركة. كان الكلب يرفع أذنيه إلى أعلى منتبها وكأنه يعرف أن المواء زائف رغم براعة التقليد، لكن الولد صدق وارتمى في حضنها لتحميه من القطة المزعومة. كان قد اعتاد أن يسمع صوت أمه بعد المواء وهي تحدث قطتها الوهمية وتستدرجها أو تؤنبها قبل أن تطردها من المكان بنفس الإيقاع المتكرر :

- تعالي يا قطة. ابتعدى يا قطة، سينام الولد يا قطة، من قال لك إنه يبكي ؟ لابد أنه ابن الجيران الذى يبكي فاذهبى إليه وخربشيه، اخرجى من عندنا يا قطة خرجت القطة ونام الولد وقفلنا الباب ولن ترجع القطة.

وكما يحدث دائما لتنويم الولد لعبت هي نفس الدور بين الدندنة والهددة والتخويف حتى يسكت تماما إن كان يبكي أو يفكر فى البكاء أو يبدو لها معترضا على النوم، سكت الولد تماما وكف عن الحركة متناوما قبل النوم الحقيقى لفترة، وكان أبى ينظر إليها وإلى الولد وينتظر النتيجة، وعندما بدا له أن الولد راح فى غفوة أمرها :

- خذى الولد إلى حجرة النوم ونامى إلى جواره حتى يطمئن ويغطس فى النوم وهو فى حضنك .

نظرت هي نحوى فى احتجاج مكتوم قبل أن تحمل الولد بعصبية وتخرج من المكان. قام أبى بهمة وأغلق الباب وراءها ثم سكه بالترباس. واجهنى وهو يومئ ناحية الباب المسكوك هامسا :

- شكلها جميل لكنها لا تناسبك كما كنت أظن .

واصل كلامه بنفس الصوت بعد تردد:

- لا تخلف منها غير هذا الولد .. أمومتها كاذبة.

كدت أرد عليه مدافعا عنها لكنه واصل مرة أخرى وقد زاد قناعة

بفكرته فارتفع صوته أكثر :

- هل سألت عن أصلها وفصلها ؟ هل تعرف فصيلة دمها ؟ ثم كيف

أخفيت عنى أخبار زواجك طوال هذه المدة؟.

حيرتني أسئلته ولم تطاوعنى الأجوبة، قلت أريح نفسى بالسكوت

وأحتمل توبيخه لى، وكان صوته يرتفع أكثر وأكثر يتهمنى بعدم الوعى

وسوء الاختيار وكأنه يبلغها برأيه فيها وفى زواجنا. ولا بد أنها كانت

تسمع كل شىء مثلما أسمعه لأن صوت خطواتها من وراء الباب المسكوك

كان يعلن عن وجودها خلفه.



فى نفس الليلة طالبت زوجتى بالكف عن تخويف الولد من قطتها

المزعومة فوافقتنى بحماس على غير ما كنت أتوقع وتعهدت بتنشئة

الولد شجاعا لا تخيفه قطة ولا كلب ولا حتى أسد. ارتحت لردودها

وحدثتها عن طفولتى المبكرة فى قريتنا البعيدة قبل أن نذهب إلى تلك

المدينة التى صارت لنا موطننا وسكننا حافظ عليه أبى وتبدل بالنسبة

لى بحسب وظيفتى. ذكرت لها كيف كنت أرمح فى وسط دارنا القديمة

فى تلك القرية البعيدة لأطارد الأرانب الذعورة والطيور الهاربة يعود

حطب جاف كنت أهش به عليها. وقلت لها أيضا كيف أننى لأسباب

لا أعرفها كنت ألبس قميصا على اللحم بدون سروال تحته وأنه حدث مرة واستدار ذكر إوز ممن كنت أطارده مع بقية الطيور. استدار ورمح ورائى ثم عضنى فى مؤخرتى فأدماها وأصابنى بالرعب، قلت لها أننى كنت أصرخ وأبكى وأتوجع وقد جاءت أمى وجدتى لأبى وخالاتى وبنات خالاتى، كانوا كبارا يضحكن من عرى مؤخرتى التى كانت تستحق تلك العضة كى أستر نفسى فى مستقبل الأيام، كانوا جميعا يزودون غضبى من ذكر الإوز وكل أنواع الإوز، لكن الدرس الذى تعلمته هو أننى بعد ذلك اليوم لم أتنازل أبدا عن سروالى، وأننى أيضا تعلمت الحذر من أى سرب إوز سارح سواء فى دارنا أو حتى فى دروب القرية أو عند شاطئى ترعتها. بل إننى دون مبالغة مازلت أشعر بالخوف من أى إوزة تفتح منقارها أمامى.

ضحكت زوجتى وأشفققت على الطفل الذى كنته وتمنت لو كانت هناك فى ذلك الزمان والمكان لتذبح ذكر الإوز العضاض وتلطح بدمه كل جدران الدار ليزول خوفى ولا أكف عن مطاردة الطيور والأرانب بعود الحطب الجاف.



فتحت باب الشقة لأخرج فوجدته يقف قبالتى. كان الولد ورائى يتبعنى بخطواته كى يشير إلى مودعا بيده الصغيرة مثلما يفعل كل صباح لكننى فوجئت بصرخته، استدار وحاول الرمح فسقط منكفئا على وجهه. سارعت أمه وحملته وحاولت إسكاته لكنه ظل يبكى. يشير

بأصابعه الصغيرة إلى القط الواقف بجسارة يحسد عليها فى نفس مكانه  
عند مدخل الشقة وكأنه ليث، حاولت هى أن تطرد القط فلم تغلح،  
ظل واقفا فى نفس مكانه ينظر فى اتجاهنا دون أن يتزحزح عن مكانه.  
كان الولد ما زال يبكى بخوف وهلع وهو يشير إلى القط وكأنما يستجير  
بنا لإبعاده. وكانت هى الأخرى قد أصابها نفس الهلع فجعلت تلتفت  
ناحيتى وكأنها تدفعنى دفعا لإبعاده عن مدخل شقتنا، كان من اللازم  
أن أخلص الولد وأمه من رعبهما لكننى كنت فى حيرة لأن القط مجرد  
قط فى نهاية الأمر، اقتربت منه، قرفصت ومددت يدي اليمنى نحوه  
بحذر وببطء والقط ثابت فى مكانه يركز نظرة عينيه فى عيني. بدا  
لى هادئا وأليفا فى لحظة فتحسست رأسه بحنو ونعومة، وبدأ لى أنه  
اطمأن وسكن فى نفس مكانه فأخذت يدي تمسح على ظهره عدة مرات  
استشعرت خلالها نعومة شعره ودفئه، كان الولد يقف ورائى بعد أن  
أنزلته أمه بناء على رغبته وقد زال خوفه على ما يبدو. كان مسنودا  
على كتفى بكلتا يديه. يشير نحو القط وينطق حروفا مبعثرة لكنها  
فرحانة، تمدد القط على الأرض وتلوى فى نعومة أوحى لى بالانتناس  
له أكثر. يموء فى استكانة والولد يقترب أكثر ناحيته متأملا وربما  
مطمئنا يمد يده نحوه ثم يخطفها بسرعة وهو يضحك بينما ألاعب  
القط ويبدو أنه يلاعبنى. ولا أدرى كيف تذكرت على نحو خاطف  
ذكر الإوز الذى عضنى فى مؤخرتى بينما أنا طفل فشعرت بقشعريرة  
فزغ مفاجئ. ولا أدرى إن كان القط قد استشعر خوفى أو أن راحتى

زودت ضغطها عليه أكثر مما يحتمل فأحس بالفزع وانتفض على نحو مفاجئ وراح يخمش يدي بمخالبه في سرعة مباغته. طال راحتي أسفل الخنصر وعضها بقسوة فأدماها ثم قفز من مكانه وفر هاربا ينزل درجات السلم في لمح البصر. نظرت إلى ظهر يدي التعسة فوجدت مجموعة من الخطوط المتوازية والمتقاطعة من الدم الناضح من أثر المخالب بينما الأنياب الهاربة قد خلفت بؤرتين في كل ناحية تقطر الدم بوهن وهي محاطة بزرقه طارئة. كانت يدي قد تشوهت على غير توقع مني أو منها أو من الولد الذي انخطف وجهه وقد خاب أمله في فارس نصف جسور مثلي على ما يبدو. فارس أراد أن يبدو رائعا أمام من راهنوا عليه فسقط في شبر ماء لتضحك عليه الناس ولن يفيدته التبرير أو الشعور بالخجل. تركت لها يدي تغسلها بالماء البارد وتسكتني كلما هممت بأن أتوجع بصوت. لكنها عندما رشت على الجراح من زجاجة عطرها صرختُ. كنت أشعر بكل كفى شعلة من لهب صاعدا إلى كل الذراع والدماغ وكل البدن، وبالشاش المعقم ربطت راحتي فشعرت على نحو غامض بالعار من نفسي.



قال الطبيب الذي بدا لي حديث التخرج شديد التفاؤل والثقة :  
 - المسألة بسيطة ولا تستحق كل هذا القلق، أنت في حاجة إلى حقنة مضادة لميكروب التيتانوس وهي متوفرة في كل الصيدليات.  
 وقال الصيدلاني العجوز المحاذر :

- المسألة أخطر من مجرد حقنة مضادة لميكروب، اذهب إلى مستشفى الكلب فالجروح غائرة . خذ رأى الدكتور حسن.

قالها وهو يشير إلى رجل مهندم ومتوسط العمر كان يقف ورائي، عندما هممت بسؤاله أشار إلى لكي أفك الرباط ليرى الجرح وعندما فعلت هز رأسه وقال من بين أسنانه :

- ما أعرفه هو أن السعار ينشأ من فيروس ينتقل مع الدم ويسكن فى المخ، يتوقف الأمر بالطبع على نوع الحيوان وحالته ومن الأفضل سؤال أخصائى. للأسف أنا متخصص فى طب العيون .

قال الصيدلانى العجوز مستفسرا ومحاولا التأكيد فى نفس الوقت :  
- هل يمكن أن يصاب بسعار القطط وينونو ويخمش ويعض كقط مسعور بسبب تلك العضة يا دكتور حسن؟

همس الدكتور حسن ببعض الاصطلاحات الطبية الغامضة ولم أسمع للصيدلانى ردا، نظر إلى بحياد المتأمل غير الراغب فى مواصلة الحديث أو التورط فى إبداء رأى قاطع، تركت الصيدلية وسرت حائرا فى أمر نفسى حتى وصلت إلى مكتبى، سألونى عن أسباب ربط يدي فذكرت لهم ما جرى باختصار، طلب أحدهم منى أن أفك الرباط ليرى عمق الجرح ففعلت، قلب راحتي بين يديه وقربها من عينيه ثم قال بثقة :  
- لا تشغل بالك فالحيوانات المستأنسة لا يصيبها السعار عادة، الكلاب الضالة وحدها هى التى تصاب بالسعار أما القطط المنزلية فلا خطر منها.

صححت له معلوماته وأنا أعيد ربط كفى بنفس الرباط:

- لقد كان قطا غريبا.

- قط الجيران مثلا؟ يمكن أن يكون قط واحد من الجيران، لو كان

قط واحد من الجيران فلا تقلق.

- لا أعرف شيئا عن قطط الجيران.

ساد صمت ثقيل كابوسي قبل أن يتدخل زميل آخر:

- لومات القط خلال اليومين القادمين فيحق لك أن تقلق، أما إذا

عاش فلا خوف عليك.

جاوبه أحد الزملاء بعصبية رغم أنه كان صامتا طوال الوقت قائلا:

- أنت أحقق دون أدنى شك؛ إذا كان فيروس السعار ينتقل إلى المخ

خلال ست ساعات من الإصابة ينعدم بعدها أى أمل فى أى شفاء فكيف

تطلب منه الانتظار يومين لمعرفة مصير قط ضال لا يخصه أو يعرف له

صاحب؟ إنه قط ضال ومسعود دون أدنى شك.

راحوا يتبادلون الاتهامات والآراء المتعارضة حول إصابتي أو عدم

إصابتي بداء السعار بأساليب تغيظ، جعلوا من مصيرى موضوعا للجدل

فأصيب عقلى بحالة تبدل مفاجئ وصرت غير قادر على الانحياز لرأى

أو ضد رأى لصالح لرأى معاكس، ولا بد أنه كانت قد فاتت ست ساعات

منذ عضنى وخمشنى القط الغريب، قلت لنفسى إنها أول علامات وصول

الفيروس إلى المخ. شملتنى رعشة مفاجئة وتراخيت ببذنى على مقعدى

ولم أعد أشعر بأى شىء، كنت أسمع الأصوات وأرى الخيالات والأشياء

من حولي وقد تلونت . وأغمضت عيني فرارا فرأيتها ورأيت الولد ومن جديد سمعت المواء المتواصل الشرس الحزين وتوهمت أنه صادر عني . وقلت لروحي برغم الصحو إنني في غيبوبة تلازم بدايات الإصابة بداء السعار . قلت لنفسي إن المصاب بالسعار ينقل العدوى للآخرين برغم إرادته . كانت هي تتكلم وتتكلم ولا أفهم كلامها رغم اتضاح الحروف ونبرات الصوت . وتذكرت على غير إرادة مني ذلك الكلب الذي كان يحرس باب بيت أبي فتذكرت ذلك القط الوهمي الذي كانت تبرع هي في استحضاره لتخويف الولد ثم ظهر لي ذكر الإوز القديم وجعل يطاردني وأنا أفر منه وأراه وهو يعاود عض مؤخرتي . كانت زوجتي تتكلم بنفس الإيقاع وهي تفك رباط يدي فأتأوه من حرقة النسيج وهي تنتزعه انتزاعا فتزود ألمي . لكنها لم تكف عن الكلام عن التصاق الجرح بالرباط على غير ما كانت تتوقع ، ومرة أخرى فتحت زجاجة عطرها الثمين ورشّت الجرح فالتهب ظهر الكف وباطنه وسرح اللهب إلى الذراع والبدن والدماغ ، صرخت مستجيبرا من الألم وأشارت إليها أن تترفق وهي تعاود ربط الكف برباط جديد غير المحلول الذي تلتخ ببقع الدم . أمسكها من ذراعها فتباعد ثم تدنو في ثقة و ببعض الدلال . تجلس إلى جوارى فأشعر بطراوة لحمها وهي تقترب مني . أحوطها بالذراعين بقوة لا تسمح لها بالتباعد أو الانفلات . أعض لحمها الطرى الناعم عضات مسعورة متتالية وأسمع من داخل صوت المواء الشرس الملهوف ، أسمع صرخاتها المفزوعة فأفريق لروحي على مهل . أرى القط إلى جوارى

يخمش الفراش برقة ووهن ثم يقترب منى ويتمسح فى جنبى بينما الولد فى الناحية الأخرى يزحف ويصعد فوق فخذى لكى يعبرهما بهدف الوصول إلى القط الذى صار يموء بإيقاع حزين آسف . وأفيق من شرود ناكرتى فأجدما وقد تحررت منى وتباعدت دون ابتعاد حقيقى وكأنها تدعونى لمواصلة الإمساك بها ومداعبتها . تتحسس كتفها المعضوض وتلومنى :

- يا عضاض .. يا مسعور .. يا محروم من أكل اللحم .

لعلنى كنت أبتسه لها بوعى وأنا أداعب القط الذى لايد وأنها نجحت فى استئناسه إلى هذا الحد المذهل فى وقت قليل رغم ما كان عليه من شراسة فى صباح نفس اليوم . أمعنت فى مداعبة القط وأثقلت عليه لأختبره . فظل ناعما وأليفا وجاهزا للمصالحة ، وقلت لنفسى إنها بالفعل بارعة وقادرة على استئناس ليث . أنسى مخاوفى وأستبعد إصابتى بالسعار رغم سخونة الجرح فى يدي وآثار عضاتى على كتفها ظاهرة وربما توحى لمن يراها بمعكوس الأسباب .



## الابتلاع

عيبك الخطير أنك تحول كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول إضحاك الخلق معك، أنا لست ضد الضحك من غير سبب معقول، حكايتك مأساة أو هي على الأقل بوادر مأساة أكبر بكل المقاييس ويلزم العمل على عدم وقوعها. سأوضح لك الأمر مستشهدا بكلامك أنت نفسك، ظاهر أى موضوع يختلف عن جوهره وسوف نسعى للوصول إلى الجوهر، الولد يكبر البنات بعامين وتسعة أشهر، والبنات لم تكمل عامها الأول وتحتاج فى هذه السن الحرجة قبل الفطام إلى غذاء كاف، لا يحق لك أن تقاطعنى قبل أن أكمل كلامى، عيبنا هو عدم القدرة على الإصغاء الجيد لمن يتحدثون إلينا، المسألة ليست زمنا يستغرقه متحدث أطول أو أقصر من الآخر، يجب أن تفهم ما سبق وقلته لك قبلا من أن البعض عندهم كلام أكثر أهمية وجدوى، وقد يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه أولئك الذين ليست لديهم غير بعض التعليقات اللفظية العابرة التى تسعى إلى الإضحاك وإشاعة جو من المرح المفتعل، هناك أيضا من يبرع فى صياغة أفكاره فى كلام مختصر يفى بالغرض، وهناك من يعجز عن توصيل فكرة بسيطة ولو طالت ثمراته. كل هذا تفرغ هامشى للموضوع الأساسى الذى يلزم أن نعود إليه ونفسره.

لم يكن مثل هذا الكشف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد منذ البداية . أعطيت لأنه لم يكن لديك غير الاستعداد الفطري للعطاء . وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا في عراء العالم دون الاستناد الى أحد فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت . ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبستك وصارت مبرر بقائك الوحيد برغم أنه حدث أن كشر هو عن أنياب الوحش فيه واستباحك كما استباحهم ، غير أن الجرح سكن في الأعماق (الغويطة) واستكان ، وكلما ضاقت بك الدنيا كان يعنّ عليك فتستعيد تاريخا من النهب كنت أنت أول ضحاياه» .

«ليلتها أدركت أن وجودك وسط الجمع خدعة ، فلا الوجه ضحك ولا اللسان تدرب على الهدهة والتملق . لم يكن غير الكدر على سحنة مضروبة بألف سوط في الزمن الفائت وميراث مسلوب لم تتمكن من الاستناد عليه أبدا فظلت تترنح ، وكانت مطالب الآخرين طوقا في عنقك يصعب الخلاص منه . وليلتها لم تسهم معهم بالقرش لضيق ذات اليد في حفل المأكلة بعد المشربة ، هون أكثرهم عليك الأمر وتسابقوا في التطوع لاحتمالك . لكنك أحسست بسخف المتطفل عندما تعايشت مع أحدهم على قطعة حلوى مثلما فعل الآخرون فواجهك وبدا لك أنه يعايرك تصفية لحساب قديم في خياله ، أعادك رغما عنك إلى ما فات من أمر استلاب إرثك القديم ، وتأكد لديك ما كان مؤكدا وتناسيته في زحمة الرغبة في الخروج إليهم من قوقعتك لأنه من يمتلك ويدفع يحق له البقاء في المكان ، فبكييت مترنحا بعبء شراب ابتلعتته ولم يكن من حقلك» .

«تقول إن الولد وقد تخطى منتصف العام الرابع أخذ « ببرونة» البنت ووضع حلمتها في فمه وامتنص محتوياتها ثم أعادها فارغة بجوار البنت النائمة التي لا بد وأنها سوف تعجز في صحوها عن حماية رضعتها من قبضة الأقوى. تقول إن الأمر لم يشغلك كثيرا إلا بعد تكراره على مشهد منك في الليلة التالية فأيقظت زوجتك لتحكى لها ما حدث فلم تهتم هى على عكس ما كنت تتوقع من انخراطها فى الضحك مثلما كنت تضحك. كانت هى غارقة فى نومها الثقيل فتركته لتغطس فى نفس البحر الذى أخرجتها منه قسرا. وفى الصباح عاودت الحديث معها عن اكتشافك بنفس الحماس لإضحاكها فبدا لك أنها تستمع إلى نكتة سخيفة سمعتها ألف مرة. لا بد أنك شعرت بالخجل لحظتها وتلعثمت على عادتك. ثم حدثتها متواريا خلف نبرة الفاهم مقدا إليها تفسيرك الخاطى بأنه مجرد حلم. حلم برئ لطفل برئ يبتلع - بينما هو نائم فى واقع الأمر مستيقظا فى ظاهره - جرعة لبن صناعى لا تخصه تنفيسا عن رغبة مكبوتة فى ابتلاع ما كف عن ابتلاعه تنفيذا لإرادة الكبار. حدثتها عن كل ما سمعت به من كشوف فى علم نفس الأطفال فلم تسعفك باستعدادها للسمع وغيرت الموضوع».



«وزور هو أوراقا بشراء الأرض والدار. واستخدم بصمة الراقد فى ركن القاعة رقدة الموت، كانت هى تحت قدميه تحرسه وتنتظر تلبية ما قد يصدر عنه من رغبات. لكنها أغفت فى قيلولة ساكنة لتتيح له إكمال مراسم السلب بلا مانع، اشترى هو شهود زور ودفع واطمان إلى ضمان

الامتلاك، ويوم طالبته هو بأن يتولى بنفسه تقسيم الميراث بعد ذكرى الأربعين ضحك ساخرا من حسن نواياها لأنه أصبح وحده سيد الدار ومالكها ومالك الأرض أيضا. ضربت هي صدرها المهدود براحتها وخرج صوتها ندبا متواصلا للم كل رجال الدار وحريره يستفسرون إن كانت حلت بالدار مصيبة جديدة؟ فأشارت إليهم أن أسأله. وعندما سأله أجاب ببساطة إنه اشترى الأرض والدار بمحض إرادة الرجل ودفع. أظهر عقد البيع فتأملوه وتبادلوه وممصوا الشفاه. وقال لهم إن الرجل الكبير كان يكره الضعفاء ويعشق الأقوياء القادرين على حماية ميراثهم من عدوان المتربصين. كان متبجحا إلى حد أنها أنكرت أن تكون بالفعل قد حملته في بطنها تسعة أشهر أو أرضعته من لبنها. تبرأت منه قبل أن تسقط من طولها. ولم تقم لها بعد ذلك الصباح الصعب قائمة. غاب عنها العقل الموزون وانفتحت العينان لترقب العدم. بقيت جالسة فوق فراشها مشلولة الأطراف واللسان تتأبى على الرقاد، عليها بانسحابها على هذا النحو حسبت نفسها دون وعى تكفر عن لحظة الغفلة التي أتاحت له فرصة التحكم في مصائرنا بلا حياء»



«أمهات الزمن الفائت يا صاحبي كانت تعرف واجباتها الأساسية وتقوم بها على خير وجه، كانت الواحدة منهن تصحو من نومها إذا كح طفل أو تقلب في فراشه، يدها المدربة تتحسس جبهته لتطمئن على حرارته دون مقياس للحرارة، تسرع بالقيام من مرقدتها في برد «طوبة» لتعمل له الينسون أو النعناع بحسب ماتتطلب الحالة. زوجتك مأساة

بكل الحسابات لأنها تستغرق في النوم وتترك الولد يمارس استغفاله، يستلب غذاء البنات وقديما قالوا إن المال السائب يعلم السرقة. وهو قول صائب يتأكد صدقه كل يوم لو قرأنا ما ينشر عن بعض تلك الشركات الاستثمارية والبنوك الأجنبية والمشاريع الوهمية التي يؤسسها محتالون على مستوى عالمي بهدف استلاب رصيدنا وتمييع ميراثنا. القياس مع الفارق طبعا لكن الغفلة هي الغفلة، والأم التي تسمح باغتصاب جرعات من اللبن الصناعي قبل أن تصل إلى فم طفلة في عامها الأول لا تؤتمن على مصيرها في مستقبل الأيام».



«وقالت البنات بعد موت الأم محسورة: «دافع عنا وساعدنا لنستعيد حقنا المسلوب حتى لو لجأت إلى قتله ما شهدنا ضدك»، لكنك استخدمت حكمة الأفندية وجمعت مجلسا من كبار رجال العائلة وطرحت عليهم ما كان من أمر الحق الضائع. فطيبوا خاطرک ببضع عبارات: «عيب أن تتهم أخاك الأكبر وهو الذي صار في مقام المرحوم والدك، ما في جيبك في جيبه وما في عبء في عبءك والدم لا يتحول إلى ماء، البنات مصيرهن الزواج والواحدة منهن لها جهازها كأحسن ما يكون في شرع العائلة، أما أن تستولى على موروث من الأرض وتضيفه إلى ملكية غريب فهو ما لن يقبله أحد منا ولو طارت فيها رقاب، وأنت أفندي لن تزرع أو تحصد. شهادتك سلاحك الذي يعفك من طين الأرض ووسخها»، وانفض المجلس فتحسس هو ذقنه وهز رأسه متوعدا فابتلعت أنت الخذى لأنك جرؤت على فضحه في حضورهم».

«تقول أنت أنه حدث أن تطوعت بمحض اختيارك لإعداد جرعات اللبِن الصناعي للبنْت في تلك الأمسيات التي مرضت فيها والهائم تستغرق في نومها عقب ذلك المسلسل الساذج الذي تصادف وكان يعرضه التليفزيون أيامها. كنت تعد الرضعات وتضعها بين يدي البنْت وأنه حدث أن فعلت نفس الشيء مرة وخرجت من الحجرة بحثاً عن عود ثقاب تشعل به سيجارتك ثم عدت لتجد عبوة اللبِن الصناعي قد تلاشت عن آخرها والبنْت تبكي بحرقة والوعاء الفارغ بينها وبين الولد الذي بدا لك متناوما يدارى جرمة ويتقلب في الفراش بغير معنى».



«ودهبْت لحضور حفل زفاف كبرى البنات بكرها لأنه لم يكن من المناسب لطبعك التخلي عنها في يوم فرحتها. قابلتُك أمام الغرباء بعبوس الوجه وفتور الكلمات فأجهدت نفسك لتحتفظ بشكل علاقة مألوفة بين شقيقين أحدهما وقد من مدينة يعمل بها والآخر راسخ ومعدود في عائلة تسمخ بالأنوف اعتزازاً بجذورها الضاربة في طين الأرض رغم ما يجري بين أفرادها من انتهاب الحقوق المشروعة واستلابها. كان اسم العائلة يطن في أذنيك ويجلجل في مكبر الصوت وكأنه يعلن للأسرة الأخرى تحذيره الخفي شأن أفراسها التي تتحول إلى سباق بين عائلتين. ولأنه مثل دور الأخ المسيطر عليك فامتثلت للأمر. انتحى بك جانباً وسألك عن سر غيابك الطويل عنهم وتمسح في أشواق البنات متناسياً أنه طردك. فاعتذر المطرود للطارد عن تقصيره في طرق بابهِ من أجله ومن أجل أشواق البنات. كنت تتعامل معه بحذر وتخشى لو دب بينكما

خلاف جديد أن يحرمك من تقليل شكاياتهن من أفعاله في غيابك .  
ربما لأنك كنت أحيانا تفلح في تخليص بعض حقوقهن منه بالحيلة  
أو بالحزم المتودد المحسوب أو حتى بالدعابة في لحظة انتشائه من  
أثر الدخان الأزرق الذى يخرج من صدره العريض مصحوبا بضحكاته  
ونحنحاته ، كان يتجاوز حدوده ويسألك إن كنت أيها الأندى قادرا  
على دفع تكاليف قعدة من قعداته المسائية فتجيب بالنفى حتى لا تسود  
الليلة . يضحك ويوشك أن يجعلك هدفا لإضحاك أتباعه ناسيا أنه هو  
نفسه الشقيق الذى نهب ميراثك الذى به يتباهى . وأنه أجبرك فى  
واقع الأمر على العمل بنصف مؤهل هو مجدك وعارك فى ذات الوقت .  
سلاحك والطعنة النافذة فى قلبك . مصدر زهوك لأنك انتزعته بعناء من  
واقع شرس خلال سنوات اغترابك . كان يتأكد لك صدق ما سبق أن  
قرأته من أن العالم انقسم إلى مظلومين وظلمة . مقتولين وقتلة . حاكمين  
ومحكومين . فقراء تنطمس تحت الرماد مواهبهم وقدراتهم على الفعل  
المثمر وأغنياء أكثرهم حمقى مثله . يباهون ويتباهون لأنهم يسهمون فى  
إفساد العالم أكثره .



اتقول إن الشكوك حامت حول دماغك على نحو غامض . خطرت  
فى خيالك شاحبة وبعيدة ثم تخلقت وبعثت ومضاتها التى حيرت  
الدماغ بقدر ما بعثت فيها من مشاعر الارتياح . وفى المساء التالى أخذت  
الولد لينام فى حجرتك خلافا لاعتيادك النوم منفردا . كان يقوم من  
فراشه فى منتصف الليل أو قرب الفجر ، يخرج من الغرفة ويتصافد أن

تشعر بحركته فتسأله عن وجهته فيرد عليك بأنه ذاهب لقضاء حاجته فى دورة المياه فتفرح به متوهما أنه تعلم أخيرا أهمية المحافظة على نظافة الفراش وجفافه . كنت تتقلب ولا تشغل نفسك فى أول الأمر بمتابعة خطواته حتى اكتشفت أنه يذهب إلى الحجرة الأخرى كأي لص محترف ليستلب غذاء البنت بينما الأم غافية إلى جوارها وغارقة فى بحر العسل والمنامات الوردية . ذلك أنك قمت من رقادك القلق ذات مساء على صراخ الطفلة . ذهبت لتهدئتها بينما الهانم لا تسمع بسبب النوم الثقيل لتكتشف استلاب الرضعة التى كنت قد أعددتها لتوك . ليلتها أيقظت الأم غاضبا وفهمت أنها من أبسط واجباتها كأم أن تحمى صغيرتها من لصوصية الولد . لكنها سخرت من فكرتك وأنكرتها تماما مؤكدة أنها ناولت البنت جرعة اللبن بنفسها قبل أن تغطس فى النوم وحاولت أنت عبثا إقناعها بأن الولد ابتلع غذاء البنت الذى كنت قد أعددت له بنفسك . تشككت فى أمر ذاكرتها وسأيرتك لتهدأ قائلة إن الأمر لا يستحق كل هذا الغضب لأن الأمر فى النهاية نوع من أنانية الأطفال شائع . الغريب فى الأمر أنك تساهلت وسكنت نفسك واعتبرت أن الأمر على هذا النحو نكتة . بل إنك كنت ترويه مؤخرا على مسامع الأصدقاء والجيران وزملاء العمل مستجديا ضحكاتهم على الطفل والطفلة . وفاتك أن الأنانية شعور إنسانى لا ينتهى فى مرحلة الطفولة وإن كان يبدأ منها ويستفحل خطره فى الزمن التالى . وفاتك أيضا أن توكد لها ولنفسك أن من يفرط فى حق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن .»

## المتوحدان

وفى الكابوس الكابس على قلبى وعقلى رأيتنى زوجا لنفس الزوجة وأبا لنفس العيال. كانت أحوال زوجتى لا تطاق بسبب إنها كانت تعترض على كل اعتراضاتى الشرعية وغير الشرعية. كنت أكابد من تكرار محاولاتى لإفهامها منطقية أسبابى التى تبرر اعتراضاتى فلا تستجيب أو تبدى استعدادها لإمكانات الاستجابة أو الفهم. كان عيالى فى الكابوس يكابدون العرى والحرمان والمرضى ولا أملك القدرة على مساعدتهم لضيق ذات اليد. وفى نفس الكابوس الكابس على أنفاسى كان لزوجتى شقيق وحيد قادر على الانقسام بحيث يتحول إلى ثلاثة أشقاء بمثل ما كان لى شقيق واحد يمكنه الانقسام إلى ثلاثة أشقاء وقتما يشاء.

كان شقيق زوجتى وقت الانقسام يتحول إلى سمسار مواشى فى سوق بلدتنا مع تاجر سوق سوداء فى المدينة التى نتعايش فيها بكل العمر. أما الثالث فكان عميلا لأكثر من جهاز من أجهزة الرصد والمتابعة والمراقبة. كان من الممكن أن أحتمل تاجر السوق السوداء أو سمسار المواشى رغم الخسائر التى كنت أخسرها بسببيهما. صحيح أننى كنت لا أهتم بأسعار المواشى إلا فى أضيق الحدود لأننى لا أشتري لحومها إلا فى المناسبات السعيدة التى هى قليلة ونادرة. لكن تاجر السوق

السوداء كان يكويني وينتقم مني على أبشع نحو لأنه كان يطاردني أو يجعل صبيانه يطاردونني كلما احتجت شيئاً ضرورياً من سوقه الذي يسيطر عليه . كنت أدفع أضعاف أثمان كل ما أشتريه للاستهلاك اليومي أو الشهري أو السنوي . وسواء اشتريت منه مباشرة أو من أحد من أعوانه أو شركائه فقد كنت أدفع بزيادة مُكرها . والذي كان يكيديني هو إلحاح زوجتي - التي هي أخته - على كسب أكف عن الاعتراض وكانت فكرتها تتلخص في أنه أحق من الغرباء في ابتزازي . وما دام الكل يكسب في سوقنا السوداء بنفس البشاعة فلا بد أن أخاها مظلوم لأنني أصب عليه وحده كل غضبي وأعلن عليه احتجاجاتي وكأنني استخسر فيه الربح الحلال بموازن السوق . كانت تستشهد بحديث مروي عن رسولنا الكريم يقول فيه إن تسعه أعشار الرزق في التجارة . أطلبها بأن تمهلني فترة حتى أراجع صحة الحديث فتتهمني بالخروج على الناموس أو حتى من دائرة الإيمان . أتعذب وأشعر بوحدتي فأحاول مرة أخرى أن أفسر لها فكرتي فلا تستمع لي ولا تتيح لعيالي إمكانية الاستماع لي مخافة أن تفسد عقولهم مثلما فسد عقلي . أو مروقهم مثلما مرقت وتشككت في الحديث الصحيح . أتحير أولاً ثم أستسلم وأسمح لعيالي بالشراء منه بأعلى الأسعار لكنها لا تسامحني وإن سامحتني لم تغفر لي سوء النوايا أو الحقد على الشطار من تجار المدينة وهو عيب يصعب إصلاحه وقد فات الأوان .

لكن الشخص الثالث والذي هو عميل لأكثر من جهاز من أجهزة الرصد والمتابعة والمراقبة فقد كان هو سر مأساتي ونكبتي وجوهر اعتراضى على

الاحتمال. ذلك أنه كان يأتي ويكتفى بالجلوس في قلب المسكن ساكنا وصامتا. يتأمل بلا ملل محتويات المكان ويفحص بإمعان كل ما يرتديه العيال أو ترتديه زوجتي. يحسب حساباته ويقدر ثمن الوجبة الواحدة ثم يضربه في عدد الأيام، ولا بد أن وجوده كضيف كان يفرض علينا تزويد كمية ما نشتره من بعض السلع أو حتى تفضيل نوع أغلى على نوع أرخص من باب إكرام الضيف المشارك في الوجبات. لكنه لم يكن يهتم بمثل هذه الفروق، وبألية كان يكتب التقارير عن دخلي المحتمل وربما يضيف إليه ما قد يكون قد وصلنا من بعض المعارف أو الجيران على سبيل الهدية أو المجاملة. بل إنه كان يحسب أيضا أشياء صغيرة لا يلتفت إليها المرء من أمثال كوب شاي دعاك زميل عمل إلى شربه على حسابه أو توصيلة تطوع بها صديق وأنت في طريقه ليحميك من زحمة المواصلات العامة. كان يحسبها ويضيفها إلى الدخل الشهري أو السنوي. يكتب تقارير مطولة ثم يرسلها بالفاكس من مكتب الكمبيوتر الجديد الذي انفتح مؤخرا عند ناصية حارتنا، يفسر لها الأمر على أنه عمل مشروع يقوم به فتطالبنى بأن أكون أمينا معه وألا أحاول أن أخفي عنه أى معلومة ولو كانت بحساباتي تافهة لأننى بذلك قد أعوقه عن تأدية الواجب الذى هو مكلف به. ولأنه لو لم ينجزه على خير وجه وبدقة فسوف يتعرض للمساءلة أو يتأثر مستقبله كرفيق وراصد وكاتب تقارير معتمد. وعندما أعترض على فهمها لوظيفة أخيها تثور وتغضب وتذكرنى بأن كل شيء فى حياتي مكشوف وواضح وضوح الشمس، وأن ما يجرى فى بيتنا وخارجه ظاهر ومفهوم وسهل التفسير. ولأن كل خطوة أخطوها محسوبة

وكل فعل أو رد فعل فى حياتى معروف فإنه يتساوى عندها أن يكون أخوها هو المكلف بمتابعتى أو أن يكون غيره. لكنه بالقطع لو كان لها حق الاختيار فإنها سوف تختار شقيقها لأنه بحسابات العقل والدم أولى من الغرباء طالما أن النتيجة فى كل الحالات واحدة ولن تتبدل. وعليه فيلزم الاستسلام له وتسهيل مهمته حرصا على مستقبله الذى يهمنى ومن الواجب أن يهمنى بنفس الدرجة. أقاومها فترة فينكبس صدرى ثم انهار واستسلم لأن أكون هدفا مكشوفاً لشقيقها إلى حد العراء الفاضح.

أما أخى الوحيد فكان أمره يختلف فى الكابوس. ربما لأننى كلما أوشكت على الإفاقة أتذكر وحدتى المطلقة فى هذا العالم لأنه لم يكن فى حياتى أى أخ أو أى أخت.. وعليه كنت فى الكابوس أفرح على نحو ما لأنه تحقق لى وهو كابوس كابس على أنفاس حلم ظل يراودنى فى طفولتى دون أن يتحقق أبدا. فمن هذه الناحية كان الكابوس مفرحا بمعنى من المعانى .

كان أخى عندما ينقسم فى الكابوس يتحول إلى قاتل ماجور وآخى سبّاك بارع فى ابتزاز العملاء. أما الشخص الثالث فكان لسوء الحظ شبيها بثالث أثناء زوجتى على نحو ما لأنه كان محاسبا وراصدا للحركة ثم مفسرا للمشاعر الإنسانية الكامنة مترجما للحركات العفوية وزلات اللسان. كان حالة متفردة فى ادعاءاتها للمعرفة استنادا إلى بعض قشور الأسس المنهجية الشائعة. كان يرددها بزهو أنصاف المتعلمين ويضيف إليها نسو الظن المسبق لتصرفات البشر وأقوالهم ومحاولاتهم لتبرير بعض أفعالهم حتى يثبت لهم الدليل القاطع معكوس فروضة المسبقة.

كنت من ناحيتى لا أهتم بالقاتل المأجور لأنه من المستحيل أن يقتلنى ما لم يحصل على أجر لائق بقاتل محترف. إضافة إلى كونه من داخل الداخل يخشاني لأسباب لا أعرفها رغم أنه لا يخشى على وجه البسيطة أحدا. لربما كان ذلك بسبب ما كان يدعيه من أنني أشبه أبى الذى هو أبوه فى نفس الوقت، ولربما بسبب أنه فى أحد المرات تصارع معى فصرعته وإن تظاهر وقتها بأن الأمر كان مجرد مداعبة بين شقيقين. لكن الأمر كان بيننا واضحا وجليا ويصعب إنكاره برغم مرور السنوات وبرغم ما تبدل فى حالى وحاله خلالها وبرغم كونه الأخ الأكبر لى.

لكن السباك البارخ فى الابتزاز كان لا يعينى من الدفع فى أوقات لا تناسبنى. أطلب منه تغيير جلدة صنوبر فيفسده ويفسد الوصلات والكيعان والمحابس ويقوم بتدمير كل التركيبات التى تصل إليها أدواته ثم يحاسبنى بحسب ما يقدر هو دون أن يسمح لى بأى تخفيضات أو تأجيلات فى السداد. ويهددنى فى كل حالة بترك المحابس مفتوحة والمواسير محلولة مما يعنى أن مسكنى سوف يغرق بمياه البلدية وعوادم الصرف الصحى. وكنت أدفع وأدفع وأمنى نفسى بالخلاص من تزويد مطالبه إذا ماطلت أو أجلت.

أما الشخص الثالث فكان مشكلة لأنه بحسب دراساته وممارساته قادر على كشف كل ما يعتمل بداخلى وما لا يعتمل. ولا بد أنه استفاد من علاقة الدم بيننا إلى أبعد حد حيث قدم لى مسودة دراسة عن الأحاسيس المشتركة المحتملة بين الأخوة غير التوائم ومن فرط كثرة هذه الأحاسيس

كنت أنظر إليه باعتباره مرآة تنعكس على سطحها كل هواجسى وظنونى وأمنياتى ومواجعى وهمومى وأحلامى فى المستقبل، وشيئا فشيئا كان شقيقى يتحول إلى عين راصدة ترانى بعينى وتحس بمشاعرى وحواسى الخاصة، وباختصار كنت أشعر فى وجوده بأنه لا خلاص لى ولا إمكانية فرار، وعليه لم أكن أرحب بوجوده بيننا لفترات طويلة، لكنه اتفق على نحو غامض مع شقيق زوجتى رغم الخلاف الدائم بينهما وعدم الاستلطاف المتبادل الذى يصل إلى حد الكراهية العلنة فى كل مناسبة، اتفق معه على أن يتواجد أى واحد منهما فى الأوقات التى لا يتواجد فيها الآخر وأيضا فى الأوقات الحرجة التى يلزم فيها خلو المسكن من الضيوف أقارب أو غرباء، وعندما كنت أشتكى لزوجتى من ثقل عبء الضيافة كانت تدافع بحرارة :

«هكذا أنت لا تحتمل أذى أبدا، كأنه غريب وليس من نفس العائلة».

أو تخبط كفا بكف وتبدى اندهاشها من شكاياتى :  
«حتى أخوك الأكبر الذى هو فى مقام والدك لا تطيق وجوده! يارجل سلم أمرك للخالق وخلص نفسك من هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدرك».

أكف عن الشكاية وأتحامل لاحتمال أى واحد من هؤلاء الأشخاص الذين ينقسم شقيق زوجتى إلى ثلاثتهم أو الذين ينقسم شقيقى إلى ثلاثتهم، لكن المأساة الحقيقية لم تكن فى الانقسام أو الانشطار وإنما كانت فى التوحد، توحد الثلاثة-أحوال العيال- فى واحد لا يطاق ولا يحتمل

أو توحد الثلاثة - أعمام العيال - فى واحد مستحيل لكنه موجود ومتحقق وكابس على أنفاسى. كان الواحد منهما يأتى بجلبابه الريفى وقد اصطحب طفلين من أطفاله ، يحتل الصالون الكائن فى نهاية الصالة الطويلة من جهة الشرفة. يجلس معزولا بقصد ولا يشاركنا فى أى شىء، لا يحدثنى أو يحدثها أو يسمح للطفلين بمحادثة أى واحد منا أو من عيالنا ولو كان المتوحد هو خال العيال حاولت هى عدة محاولات أن تحدثه فى أى موضوع فينظر إليها ولا يرد أو يرد - إذا ألحت وكررت سؤالها عدة مرات - بشكل مقتضب يشى برغبته فى إراحة دماغه من الكلام. أما إذا سمعنا صوته يتهاوس فذلك لأنه يوصى طفليه بعمل شىء أو الحصول على شىء أو مناولته أى شىء وكثيرا ما كان المتوحد ينشطر ويتحول إلى ثلاثة رجال يبرعون فى الجدل بصوت مرتفع فى موضوعات ثلثى بسمار مواشى يتجادل مع تاجر سوق سوداء ومسئول عن رصد الحركات وكتابة التقارير، أما إذا كان المتوحد هو عم العيال فقد كان الحوار الصاخب يدور بين القاتل المحترف المزهو بقوته وقدرته على إزهاق الأرواح بأعلى سعر فى سوق القتلة بينما الآخر الذى هو سبائك بارع فى إفساد دورات المياه ومواسير الصرف الصحى يتباهى بقدرته على الابتزاز لآخر قرش فى بيت الزبون، لكن الشخص الثالث والذى هو دارس لكل ما يعتمل داخل النفس البشرية كان يتأملنى وربما يحصى ضربات قلبى فى الدقيقة أو عدد الأنفاس التى أتنفسها، وأرانى مرثيا من الداخل بعينيه القادرتين على النفاذ لفحص الأحشاء وتلايف المسخ قبل أن يسجل كل شىء ويرسله

بالفاكس المحمول الذى يملكه ويداريه فى فتحة «السيالة» . أما إذا توحد فإننى أراه وقد أحاط نفسه بزوجته وعياله والجميع يمارسون حياتهم منفصلين عنا تماما. ولا يبادلوننا إلا تلك العبارات الإيجابية ساعة تناول الوجبات أو صراعات عياله على الكراسى التى تجاوره أو تقترب منه حول ترابيزة السفرة.

وفى الكابوس الكابس على العقل والقلب كنت أتباكى وحدى على حالى بينما تتهرب هى من مواجهتى وتتشاغل بإعداد الطعام أو الشاى أو غسيل الأطباق ومواعين الطبخ . وإذا شكوت لها قاطعتنى وطالبتنى بالصبر وبأن أفتح قلبى للأهل لأنهم أكثر إخلاصا من الغرباء، أجازيها وأتظاهر بالاعتناع بينما إرادة الصحو عندى تُسر إلى بأنه مجرد كابوس وسوف ينزاح .



## شريط الوصايا

كانت مصادفة غير محسوبة تلك التي جعلته يعثر على هذه الشرائط القديمة في قاع كرتونة مشحونة بكتب دراسية تخص أولاده في مراحل متفاوتة من سنوات الدراسة. كان لا يذكر أنه أخفاها بهذه الكيفية الكفيلة بإفسادها، ولا بد أنها ضاعت منه قبل أن يعثر عليها من دفنها في قاع الكرتونية، أو أنها في الواقع لا تخصه، كان يملك الوقت والرغبة في التعرف على هذه الشرائط، سك باب حجرته بالترياس وأدار المسجل تجربها شريطا في إثر شريط. أدهشه أنها من تسجيلاته المحببة إلى نفسه، أغنيات لسيد درويش وعبد الوهاب القديم وأم كلثوم وبدايات عبدالحليم وحلقات من ساعة لقلبك بالإضافة إلى عشرات الخطب المسجلة لخطب جمال عبد الناصر والتي تأكد أنه هو الذي كان قد قام بتسجيلها في أهم المناسبات بحساباته في ذلك الزمن الفائق. أدهشه ذلك الصفاء الكامل في معظم الشرائط وأسعدته صلاحيتها للاستخدام رغم مرور السنوات، كأنه كان يستعيد روحه كما كان في السابق ببطء ووهن في أول الأمر ثم بشدة ولهفة وتعجل، وقد تفاعل وازدادت رغبته في كشف المزيد والعودة إلى الزمن القديم، كأنما انمحي من عمره ربع قرن من الزمان، توهجت مشاعره رغم ما كان يكابده في السنوات الأخيرة من ثقل في حركته وافتقاده لإمكانيات الفعل بحسب ما يرغب ويتمنى،

كان يشعر أنه قد تحول إلى جمره ملتهبة من الداخل وإن كان سطحها  
الظاهر منظفًا وباهتا يغطيه الرماد.

كان عبد الناصر يؤم قناة السويس وفريد الأطرش يغنى للربيع  
وفيروز تنادى لشادى قبل أن يضيع شادى وكانت أم كلثوم تترنم  
برباعيات الخيام وعبدالحليم يغنى للسمرات التى هى حلم الطفولة،  
وكان عبد الوهاب يتعبد فى الكرنك ونجوم ساعة لقلبك يعيدون لقلبه  
بهجة الزمن الفائت، ولا بد أن هواء الحجرة كان يتبدل على مهل وأن  
نسمات الهواء المنعش كانت تتسرب إلى رثتيه مع تلك الأصوات التى  
تبثها تلك الشرائط المسجلة، تتسرب بيسر وتتجدد أو هكذا كان يحس  
ويصدق أحاسيسه .

تنبه إلى ذلك الشريط الذى سقط بين الجدار وجانب المكتب فى  
الحيز الضيق المعتم دائماً والذى كان لا يتيح له اكتشاف ما كان يتساقط  
فيه من أشياء، أقلام تختفى أو رسائل يكون قد وضعها على سطح  
المكتب بهدف الرد على من أرسلها فى الوقت المناسب لكنها تتوه من  
ذاكرته حتى يفاجأ بها محطوة فوق سطح المكتب وغالباً بعد فوات  
الأوان، يعلن عن غضبه ويحتج لأن أشياءه تختفى وتظهر بحسب  
ما يريدون هم، وفى كل مرة كانت زوجته تحدثه عن الكيفية التى  
عثرت بموجبها على تلك الرسائل أو الأشياء فى نفس المكان وبنفس  
الطريقة، بعدها تتشكى من الجهد الذى بذلته لإفراغ المكتب من كل  
محتوياته حتى تتمكن بمساعدة الأولاد من زحزحته عن مكانه بهدف  
تنظيف ما تحته، وفى كل مرة كانت تعاود حديثها غير المتعاطف مع

ذلك المكتب الضخم العتيق الذى يشغل نصف مساحة الحجرة بالطول والعرض، كانت تذكره كل مرة بضيق الشقة وازدحامها بالضروريات التى يصعب الاستغناء عنها مثل أسرة نوم العيال ودواليب ملابسهم الصغيرة والترابيزات التى يستخدمونها فى المذاكرة والأكل، وكان يفهم أنها تتحين الفرص لكى تدفعه دفعا لأن يفرط فى مكتبه القديم الذى ورثه عن أبيه. وصحيح أنه فرط على امتداد سنوات عمره فى أشياء كثيرة لكنه لم يشأ أن يفرط فى هذا المكتب أبدا. وكم اعترض على تلميحاتها وتصريحاتها حول مكتبه قبل أن تسترسل فيها، ونادرا ما كان يكتم رغبته فى العراك معها لأنها لم تسأم تكرار نفس الكلمات حول نفس الموضوع وإن دخلت له من الأبواب الخلفية أحيانا :

– البنت كبرت وتحتاج إلى سرير تنام عليه وحدها، شقتنا صغيرة يا مصطفى وللضرورة أحكام .. دبرنى.

لكن مصطفى كان يتحول إلى بغل أسترالى عنيد وجاهز للرفس. قادر على جلب النكد وافتعال الغضب. يسك الباب على روحه من الداخل بالترباس ويرفض أن يفتحه إلا بعد أن تبدى هى أسفها عدة مرات من وراء الباب وتتعهد أيضا بأن تكف عن فتح موضوع المكتب مرة أخرى، كانت تتعهد دائما وتعجز عن الوفاء بالعهد لأسباب يعرفها مثلما تعرفها هى وربما يوجع أكثر. وماذا يفعل هو فى ضيق المكان والبنت التى كبرت بالفعل؟ هل هو سوء الحظ كما يقولون أو أنه سوء التدبير الذى حبسهم فى شقة لا تليق ولا تسعهم؟. لكنه على أى الحالات كان يدرب نفسه على الاحتمال ومزيد من الاحتمال والسكوت.

احتال على الشريط المدفوس في ذلك الحيز المعتم حتى أخرجه ، دق النظر في وجهيه ليستدل على هوية ما هو مسجل عليه فلم يستطع ، مجرد حروف مطموسة ومتناثرة لا تشكل كلمات لها دلالة أو تميز الخط ليتعرف على صاحبه . وضع الشريط في الجهاز وشغله . في البداية سمع صوت الشيخ محمد رفعت يختم سورة الرحمن ثم سمع صراخ أطفال وجلبة لا يبين منها شيء ، مجرد ضجيج متداخل وصخب ثم ضجيج متواصل وصخب وصراخ أطفال وجلبة . ولا بد أنه انتظر كثيرا قبل أن يسمع نحنحات الرجل وتنهيدته التي كانت تسبق صوته المنطوق . تمثله واقفا كما كان يفعل وهو يشير بسبابه يده اليمنى منبها ومحذرا قبل إعادة وصاياه التي لم تتبدل أبدا ، وتفكر أنه لا بد كان في تلك اللحظات يتسمع بأدب ولا يصدر عنه أى صوت أكثر من صوت أنفاسه التي يرغب في أن يحبسها أيضا . كان قد اعتاد في مثل هذه الحالات أن يوافق بالإيماءات ويقلل من جسارته في بعض الحالات ليوافق بالهمسات المهذبة . الذى أدهشه وهو يسمع صوت أبيه من خلال الجهاز أنه كان فيه نبرات صوته هو أيضا . نفس النبرات التي يحدثها بها أو يتحدث إلى الأولاد عن الدنيا التي انقلبت موازينها . عن أسافل الناس الذين صاروا يطلعون السلام الاجتماعية قفزا دون التفات إلى الوراء أو تردد . وصغار النفوس الذين يتقافزون على أكتاف الكبار ثم يسخرون منهم بعد أن يحققوا المكاسب . نفس العبارات تقريبا ونفس النبرات . ولعله سأل نفسه إن كان الرجل الكبير في ذلك الزمن البعيد كان يقرأ في كتاب المستقبل أو أنه كان قد انكشف عنه الحجاب إلى هذا الحد؟ .

كان شريط التسجيل الذى عثر عليه مثل الدليل الذى يؤكد به الإنسان لنفسه ولن يعاشره أنه لم يخطئ فى شىء، كان يجمعهم حوله ويشغل الجهاز ويراقبهم خفية ليرى ردود أفعالهم. يرى نظرات الاستهانة المخفية خلف ستائر الأدب المرسوم على الملامح رسماً. وكانت هى تجامله بما يريحه من عبارات ويطمئن روحه الحائرة. تتباهى بحكمة الأب الذى رحل منذ سنوات طويلة وكيف أن وصاياه مازالت صالحة لزمانهم وأى زمان. «فالأدب هو الأدب والتربية هى التربية يا أولاد» وكلام آخر تقوله للأولاد قبل أن تقوم وتتركه مع شرائطه التى عثر عليها وشغلته عنهم أكثر مما كانت تتوقع أو تتصور، صار فى واقع الأمر مركونا فى الهامش باختياره، متباعدا عنهم يتسلى أو يستعيد ذاته وكأنه يقاوم الحقيقة، حقيقة أنه بقيت له بضعة شهور قبل أن يحصل على إجازة المعاش، لا بد أنه فكر فى الكيفية التى يستطيع بموجبها أن يقضى أوقات الفراغ الآتى وهى ممتدة وبلا نهاية، فراغ سوف يتلوه فراغ ومن بعده فراغ بالقطع، فهل يتحول فى هذه الأوقات الممتدة إلى مجرد شىء ثقيل ومقلق وشاغل لحيز لا يستحقه مثل مكتبه القديم الضخم الذى ورثه عن أبيه وظل يعاند ولا يفكر فى التفريط فيه رغم ضيق المكان وحاجة البنت البكرية إلى سرير تنفرد به فى حيز يخصها؟ كان يسبق الأيام بخياله ويطرح على نفسه الأسئلة التى كان من اللازم أن يطرحها على نفسه فى الزمن السابق، ربما منذ البدايات الأولى عندما كان مأمورا جديدا لضرائب المهن الحرة ثم مفتشا ورئيسا للمأمورية، وكيف أنه كان قد سمع

الوصايا ونفذها بدقة ليحافظ على شرفه المهني رغم كل الإغراءات التي كانت تصادفه وتلاحقه ، كان بحسب ما يرى نفسه يمشى على الصراط المستقيم ويطاوع بالحرف ما أوصاه به الأب القديم ، كان يرقب ذم الناس وهي تتسع وتتسع وتصبح مثل بالونات الاختبار الملونة بألف لون ولون . وكانت الأشياء تتسمى بغير أسمائها والوجوه تتخفى وراء مئات الأقنعة بينما هو ثابت في مكانه رغم الطنين المتكرر ووصايا المفسدين بأن يتخفف من ذلك التشدد الزائد الذي يقطع عنه الكثير من الرضى عنه والرزق أيضا ، كأنه كان في وظيفته تمثالا صخريا جامدا لايلين ، معزولا إلى حد بعيد عن غالبية زملاء والمرؤوسين والرؤساء ، وها هو يوشك أن ينهى أيام خدمته التي طالمت وهو في نفس المكان القديم الذي ضاق به وبعياله إلى حد الاختناق بحسب ما كانت هي تذكره أو تلومه بنعومة أو حتى تعابره دون أن يبدو عليها أنها تقصد المعايير بما حققه الكل في الأمورية من مكاسب حرام بشهادتها ، تسأله بخبث كيف أنه لم يلتفت يوما ليدبر للعيال أحوالهم مثلما فعل فلان أوعلان ممن كانوا زملاءه أو حتى يعملون تحت رئاسته ، وعن هؤلاء الذين كانوا أقل منه خبرة وأقل معرفة وإن كانوا أكثر جرأة ، كان يعرف بل يثق أنها ليست فاسدة المقاصد لكنه كان يتهمها بالميل إلى الفساد ، فساد العقل وفساد الضمير والذمة أيضا ، لعله كان يلجأ إلى هذه التهم لكي يحد من اندفاعاتها في لومه وتنغيص حياته بتلك المقارنات وهي تعرف وتثق أنه لن يتبدل أبدا ، بل إنها كانت تبدو له في بعض الحالات راضية بالفعل عن سلوكه إلى حد الانبهار ، ورغم

الصخب فى لحظات الخلاف كان يراها على حقيقتها وقد طوعت نفسها أن تقنع بأقل القليل، صحيح أن أمواج الأسعار العاتية كانت تلمها بقسوة وتفقدتها فى بعض الحالات القدرة على تسيير دفة الحياة ومطالب البيت. لكنها كانت تنجح أحيانا فى أن يتحول الأمر إلى مجرد نكتة وتساءله المساعدة بالرأى لتدبير ما عجزت عن تدبيره. يشير عليها بفكرة إذا كان يستطيع أو يعاود تذكيرها بأنها الوحيدة المسؤولة إذا عجز عن وجود الحل اللائق ومن ناحيتها كانت تتحامل على نفسها وتسكت لأنها تعرف أنه يناولها كل ما يحصل عليه من المصلحة، المرتب والحوافز والمكافآت دون أن يخفى عنها أى شىء، وفى مثل هذه الحالات التى كان يعجز فيها عن تقديم ما هو فوق قدرته كان يغضب من هؤلاء الذين دبروا أحوالهم بالحيل الخسيسة والألاعيب. يغضب من مصلحة الضرائب ومن الوزارة والحكومة كلها ومن نفسه فى ذات الوقت.



كانت مجموعة الشرائط قد نجحت فى أن تعيده إلى الزمن الآخر، يتسمع بنشوة إلى الأغنيات التى أحبها وتفجرت معها مشاعره الشابة، رجفة الحب الأولى وأحلام الصبا، الأمنيات وأحاسيس الزهو باكتشاف معنى الوطن، سهر الليالى أيام الدراسة الجامعية والتحليق فى الآفاق الرحبة للطلوع فى سكة التفوق. خطب الزعيم الذى يعد ويبشر بمستقبل أفضل والأب الذى زرع فيه بذور الصدق والجسارة وحدد له الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، العيب والمسموح،

الخير والشر. وأشياء أخرى كثيرة كان قد آمن بها وحرص على تحقيقها، كان يفتق لنفسه ليجد روحه فى الزمن الجديى وقد حصل على إجازة المعاش التى لا يحدها حد ولا رجوع بعدها إلى المشاركة أو الفعل الحقيقى، كان يشعر أنه قد دخل الشرنقة داخل نفسه وأنه صار فى واقع الأمر معزولا وزائدا عن الحاجة. صحيح أنه فى بؤرة البيت قاعد وساكن مثل مكتبه العتيق الذى يشغل نصف حجرة دون وجه حق أو بوجه حق مشكوك فى أمره بالطول والعرض، كأنه شبح معزول يتنفس بينهم، علاقته بهم طقوس باردة بلا عمق، ربما لأنه بحساباتهم تسبب فى معيشتهم على هذا النحو المحدود إلى حد الضيق والعسر، وكم فكر أن يجرب فكرة الموت بالإرادة، هى فكرة كان قد قرأها فى كتاب لا يذكره، لكنه عرف أنه من الممكن أن يموت الإنسان إذا أراد بصدق إن اقتنع تماما أن وجوده بلا قيمة أو دور أو معنى، جرب مرة ومرتين وعشر مرات وعشرات المرات، يرقد مستسلما للموت ويتمناه، لكنه برغم كل المحاولات لم يستطع حتى أن يموت، كان يجد نفسه فى الصباح ما يزال حيا يتقلب فى فراشه فى نفس ميعاده المألوف وقت طلوع الفجر، يشغل جهازه ويسمع أغنية قديمة أو يعاود سماع الشريط الخاص بوصايا الأب القديم ويسترسل فى الحياة يوما آخر، وبقوة الدفع الذاتى يقاوم أحيانا إرادته فى الموت والانسحاب، وعندما كانت هى تقتحم عليه وحدته لتستفسر منه عن أسباب اختياره للعزلة عنهم يلسعها بلسانه عدة لسعات فتفر منه وتلجأ إلى العيال .

قام من مرقدہ کمن لسعته حية ، كان الليل قد انتصف قبل ذلك بساعة أو ساعتين ، حط شريط الوصايا في الجهاز وشغله ، كان قد فكر أن صوت الصخب والضجيج وصراخ الأطفال لا يليق بشريط وصايا ، وكان عليه أن يخلص الشريط من تلك البداية التي لا تناسبه ، قرر أن يشغل تلك المساحة بوصاياه لها وللعيال مخافة أن يموت قبل أن يسجلها ، بدأ يتكلم متألقاً مع نفسه ومزهاواً بقدرته على صياغة العبارات ، وعلى غير عاداته شعر بالصحو والحياة وهي تنبض في كل أطرافه وتجعله يشعر بالوهج والفرح بذاته ، ثم أفاق على تكة النهاية ، ساعتها أدرك أنه سجل بصوته كل مساحة الشريط القديم ، مسحها وأزالها بدلا من أن يكتفى بمسح مساحة الصخب والضجيج ليحتفظ بوصايا الأب ، لعله شعر بقليل من الندم و ببعض الارتياح المبالغت ، لعله ارتياح الجاني بعد أن ارتكب جنايته دون قصد أو تدبير أو حتى بقصد وتدبير .



## مهرجة المواطن جعجع العاشر

لو كان مشروباً بارداً أو ساخناً أو عبوة تنباك «معسل» فوق حجر شيشة مخصص للتدخين على النمط العربي أو التركي لهان عليهم الأمر وفهموا سر تكرار النطق بالاسم المختصر على السنة معظم سقاة مقاهي تلك المدينة العجيبة، بينما يتقافزون ويبتسمون لإضحاك زبائنهم على اللغز نصف المكشوف، أو النكتة المتكررة التي تهدف لكسر حالة جمود كامن وساكن في قلوب الزبائن للتسرية عنهم عندما ينادى الواحد منهم زميله المكلف بتجهيز الطلبات داخل المقهى قائلاً :

- «واحد جعجع وصلّحه» مع «شاي وقهوة سادة وشيشة».
- «كركديه وينسون وحلبة» مع «واحد جعجع وصلّحه».
- «خمسة بارد وواحد زنجبيل» مع «واحد جعجع وصلّحه».



قال واحد من سكان تلك المدينة والعهدّة على الراوى دائماً أن جمعجع هو اختصار لاسم رجل عاش في هامش الهامش قبيل شيوع اسمه المختصر ليصبح منطوقاً على كل لسان، وأنه لولا أنه امتطى مقعده الدوار بمكتبه البراح ليكون مسئولاً عن مؤسسة «التوعية والبهجة» المنوط بها تنوير وتوعية المواطنين بحقيقة ما يدور حولهم وزراعة الفرحة في قلوبهم إذا أمكن. ما شاع اسمه على هذا النحو أبداً، وربما لأنه صرح قبل تعيينه أنه لن يقبل الإشراف على المؤسسة مالم تتوفر لها ميزانية

مفتوحة تتيح لها أن تقوم بدورها على أكمل وجه ، ولأنه نال مطلبه فقد استبشر الناس منه خيرا وتحديثوا عن أصله المتواضع ووفائه لن ينتمى إليهم من فقراء المدينة ، ولعلمهم صبروا وتصابروا كثيرا عليه وواصلوا الحلم فى وفائه بما وعد بتطوير مؤسسة «التوعية والبهجة» لتكون أكثر فاعلية وإيجابية لمدينة لها تاريخ لا يمكن تجاهله أو إنكاره . لكنه لم يزود الوعى كما توقعوا منه ولا زرع فى القلوب فرحة أو حلما يليق باسم أستاذ ودكتور فى تخصصه لم يف بوعده من وعوده المتكررة والمعلنة بشكل مسموع ومرئى رغم إمكانات المؤسسة المفتوحة ، بل ظل يواصل «جمعته بلا طحن» من خلال صحف صفراء أو حمراء أو خضراء وللعام الخامس على التوالى بلا إنجاز ملموس أو محسوس غير تلك التصريحات التى كان يبوح بها بأن مشواره طويل وأن التعجل بلا دراسات علمية سوف يؤدى إلى كوارث لا يقبل أن تحدث فى زمنه . وكان البعض يصدقه ويحلم ، لكن السنوات كانت تتابع وتتوالى حتى فاجأ أهل المدينة باحتفالية مرور عشر سنوات على خطة التطوير المعلنة لمؤسسة «التوعية والبهجة» ولعل المبالغة فى الإعلان وتعليق اللافتات المصروف عليها بسخاء فى كل ميادين وشوارع وحارات المدينة وبشكل غير مسبوق ، فقد كان من الطبيعى أن يسخر منه خصومه ممن كانوا يتمنون لو أنفق أموال الإعلانات فى ميادين وشوارع وحارات المدينة . وعوده الوردية لنشر البهجة والتوعية فى كل أركان تلك المدينة . كانوا فى قعداتهم ينتقدونه ويتندرون عليه لأنه يواصل استدعاء الوفود من كافة أنحاء الكرة الأرضية بدعوى أنهم يشاركون بخبراتهم فى التخطيط لمؤسسته ، وكان الإنفاق

على هؤلاء الوافدين أو التابعين من العاملين في المؤسسة شبه المغلقة التي لا يدعى لها من ينشغلون بقضايا تلك المدينة ومن بينها مسائل التوعية والبهجة بينما وفود الغرباء يقيمون في أفخر فنادق المدينة، ولا بد أن الأستاذ الدكتور كان يؤشر أن البند يسمح بتكاليف سفرهم ذهابا وعودة بالإضافة لمكافآت سخية بعمليات صعبة مقابل أبحاث أو مسودات مخطوطة، وحسب شهادات من يسعدهم الحظ لحضور اللقاءات ويسمعون بآذانهم تلك الأبحاث كانوا يؤكدون لكل من يسمعهم أنها لا تلفت الانتباه أو تفيدهم بأى جديد، كان من ينشغلون بالمستقبل أو يحلمون بتزويد التوعية بما صار إليه الحال يفشلون. وبرغم الفشل الذى يسبقه أو يتلوه فشل كان الدكتور جعجع يصدر أوامره لمن يعملون تحت إمرته لإعداد احتفالية أو مهرجان آخر، فربما يكون أكثر جاذبية من سابقه، يسعى من أمرهم ممن يعملون تحت إمرته بمهمة الإعداد لمهرجان جديد. يقترحون شكل وتفاصيل وتكاليف وبنود الصرف على «المهرجة الجديدة» ويقدمون إليه مستندات رسمية للتصديق عليها، ثم يتبادلون التهاني لو أن مسعاهم أرضاه لأنهم سيحصلون وسط «الزفة» على مكافآت وبدلات حضور جلسات وسهر وانتقالات حتى ولو لم يكن هناك سهر أو حضور أو انتقالات لأى الاتجاهات، يصدق هو بخط يده الكريمة على العنوان الذى يراه ملفتا للانتباه أو يتصوره أكثر جاذبية قبل أن تتوزع أخباره لنشرها على أوسع نطاق فى صحف ومجلات ووكالات أنباء ولا ينسى الصحف الصفراء التى تطلق الشائعات ضد أى نشاط ناجح أو فاشل ما لم يخضع من يشرف عليه لأساليبها فى الابتزاز بدفع

تكاليف التغطية الصحفية على شكل تحقيقات مزيّنة بعدة صور للمسئول بشرط أن تكون مدفوعة الأجر. لكن علاقاته العامة لم تكن بخيلة في أي الحالات لأنها تدفع من بنود صرف مدعومة ومفتوحة بأمره قبل بداية «المهرجة» الجديدة. ولا يدري أحد كيف اتسعت دائرة من ينتقدونه في السنوات الأخيرة إلى حد أن بعض المقاهي في وسط المدينة صارت تلمم أشتاتا من الشباب والرجال العاطلين أو أشباه العاطلين وتشجعهم وتدفعهم دفعا في جلساتهم المفتوحة أو المغلقة للسخرية من الدكتور «جعجع» بمثل هذه العبارات المنطوقة على ألسنة السقاة وغالبيتهم من حملة المؤهلات العليا وفي تخصصات متنوعة وإن كانوا أسعد حظا من روادها أشباه العاطلين الذين يتضحكون بلا جدوى على أنشطة مسئول مجلس شبه موقر عاجز بشكل بيّن عن تأدية دوره على النحو اللائق رغم استهجان شباب المدينة من أشباه العاطلين المفلسين أو المستورين.



في رواية أخرى من بطن مقهى مشهور كائن وسط المدينة أن أصل التسمية كان كشفا أسنوده لواحد من الظرفاء من رواده يقال إنه جاء ذات مساء وجلس على مقعد دون أن يثبت في مكانه كما هي عادته بين زملائه إذا كان مشحونا بنكتة جديدة أو يتحفز لإلقائها عليهم لينال استحسانهم، تركزت عليه نظراتهم وتهيئوا لاستقبال آخر نكتة فتحفز وابتسم على غير عادته قبل أن يقول بكل وقار :

- أصل «المهرجة» فعل معرف بألف ولام تحول لاسم مشتق من «مهرجان» لكن «مَهْرَج» بفتح الميم والراء فعل ماض يضاف إلى المهرج

فيقال «مَهْرَج المَهْرَج» أما «الجعجعة» التي هي اسم معرف أيضا من فعل «جَعَجَعَ»، والتي تضاف إليها ألف بعد الجيم الثانية فتصبح «جعجعا» ويمكن أن تتحول إلى جملة فعلية هي «جَعَجَعَ الجعجعا» «إذ يقولون أن كل من طنطن ولم يعمل شيئا إيجابيا» يستحق تشبيهه بمطحنة حبوب بدائية من حجر جيري تتسمى باسم «الرحى أو الرحاة» وعندما تدور وتكرر، بلا فائدة يقال في وصفها «جعجعة بلا طحن».

كان من الواضح أن زملاءه تصابروا عليه رغم أنهم تاهوا ولم يصل أحدهم إلى الغرض من تلك الشروح الطويلة لأصول الكلمات والأفعال التي تناسب تلامذة مدرسة إعدادية ومن المستحيل أن تكون نكتة أو شبه نكتة عكس ما اعتادوه منه لأنه بارع في توليد وإلقاء النكات المختصرة التي تجعلهم يشعرون بالنشوة ويضحكون من شغاف قلوبهم المهمومة، ولأنه بعد أن قال هذه المقدمة المطوطة استشعر الحرج فتبادلوا النظرات قبل التواطؤ بشكل جماعي في وقت واحد تقريبا لمجاملته بضحكات خافتة متقطعة، لا بد أنه لطم نفسه بسرعة وقرر التكفير عن غلطة شعر أنه ارتكبها من غير قصد قائلا إنه لم يحسن عرض ما عن له من فكرة رغب في توصيلها إليهم فلم تصل. واصل بعد أن خفتت الضحكات الخافتة قوله أنه يتكلم بجد لأنه تذكر اسم الأستاذ د. «جعجع» في الليلة الماضية بينما كان يكابد أرقا مباغتا جعله يفكر بينه وبين نفسه في حل لغز كلمة «جعجع» الذي صار شائعا بينهم يرددونه ويعرفون نصف معناه فاكتشف أنه إذا كانت «جَع» الأولى هي اختصار للاسم الذي تطلعون به الصحف والمجلات

بشكل متواتر وهو أ.د. جعفر عبدرب النبي فما هو أصل الثانية؟ لاذوا بصمت حائر وهزوا رؤوسهم ساكتين ومستسلمين ليتيحوا له فرصة فك اللغز. تنحني قبل أن يعتدل في قعدته بجديّة ليعلن لهم أن «جع» الثانية اختصار لعبارة «جامعة عين شمس أو جامعة عصرية أو عربية أو عالمية» أو شيء من هذا القبيل. أنهى توضيحه ثم لاذ بصمت المكتشف المتواضع فانطلقوا في الضحك من شغاف قلوبهم كما اعتادوا على عكس المرة الأولى فلم يتمالك هو الآخر نفسه من الضحك ليزيح الهمّ عن قلبه المحزون بسبب غربته وبطالته التي طالت وأجبرته على استهلاك وقت فراغه الممطوط في المقاهي ليتخفف من همومه. وبعد أن شعبوا من الضحك اقترح أكثرهم خبثاً أن يكون الاكتشاف العبقري خاصاً بمجموعتهم وحدها دون بقية خلق الله في المدينة. وأنهم سوف يكتفون بذكر أو سماع الاسم الشائع ويفطسون على أرواحهم من الضحك. على العكس ممن يسمعون أو يرددون الاسم وعلى وجوههم علامات كدر بسبب السخف المتواصل الذي كانت تمارسه مؤسسة امتلكها أ.د. جعفر عبدرب النبي وكأنها ميراثه الشخصي دون مستندات رسمية. حالة اغتصاب باستخفاف أو خفة يد أو ثقل ظل كابس يشبه الاستعمار الجديد كما قال صاحبهم فتعاهدوا على كتمان اللغز. لكنهم في اليوم التالي سمعوا أصواتاً في نفس المقهى تتبادل فك طلاسم الاسم لبعضها البعض بصوت عالٍ ثم يضحكون على عكس ما كان أمره في السابق يدعو إلى الكدر والغم. ولعل السقاة كانوا أكثر حساسية فتغننوا في صياغة اسمه مختصراً. يقولونه مسبقاً أو متبوعاً

بطلبات الرواد، كأنها براءة اختراع شاعت وانتشرت بشكل مجاني. أو كشف قصير الأجل بالنسبة لمن كابد أرقا في ليلة سابقة ليفك لغزا عصيا باح به لأصحاب يثق في حسن نواياهم لكنهم أفشوه. وبمرور الأيام تأكد لديه بمثل ما تأكد لكل مجموعته أن اللغز أصبح شائعا في طول المدينة وعرضها. كان الناس يذكرون الاسم عرضا في المركبات العامة ويضحكون بنشوة وكأنها أحدث نكتة تقال لعشرات المرات ولا يقول أى واحد يسمعها إنها قديمة. ولعل الشاب العاطل رغم أنفه والذي تصور أنه اكتشف لهم شفرة اسم «جعجع» ارتاح بعد أن دخلت دماغه فكرة خاطفة صدقها وأراحته من سوء الظن الذي لازمه شهرا على الأقل بأنه احتمال قائم أن يكون هناك من أطلق على الرجل اسمه المختصر قبله، لكنه تاه من ذاكرة الناس رغم الشيوع المتسارع شأن كل النكات التي يصعب التعرف على من أطلقها لأول مرة. ويوما في إثر يوم كانت المجموعة تتأكد أنه لا توجد أسرار في هذه البلدان يمكن كتمانها حتى ولو كانت في منتهى الخطورة، بمثل ما جرى في أواخر ستينيات القرن الفائت عندما كان راكب الحافلة يطلب من السائق أن ينزله قبل أو بعد أو عند محطة المطار السرى.



في واحدة من أمسيات الصيف استأذن رجل من كبار السن مجموعة شباب من رواد المقهى ليشاركهم واحدة من جلساتهم على نحو أوحى لهم بأنها زيارة مدبرة ومقصودة ولا فرار منها. ورغم أنهم توجسوا منه خيفة، إلا أنه فاتحهم وهو يتأمل وجوههم المرتبكة كيف أن كثيرا من

مهرجانات تلك المدينة تقام لإلهاء الناس بلا جدوى «عبث في عبث» فخافوا أن يبيع أحدهم بوجهة نظره بلا تحفظات وطالبوه بفك طلاسم الاسم المختزل الشائع وأسباب أن كلمة «جمعج» صارت تثير الرغبة في الضحك عند كل ناس المدينة بعد أن كانت تصيبهم بالقهر أو بالسكتة؟ فأجابهم على الفور ضاحكا بصوت عال وهو يضرب كفا بكف وكأنه لم يضحك في حياته قبل ذلك :

- إن الموضوع يخص الأستاذ د. جعفر عيدر بن النبي دون سواه. وأسألوني عنه أكشف لكم خباياه.

ولأنه كان يضحك فقد شاركوه الضحك مبتهجين، وبعد أن كفوا وساد فاصل من الصمت راح يتأملهم بعينيه الصاحيتين ويفرز تقاطيعهم واحدا في إثر واحد فتللملوا على ذواتهم وتوجسوا خيفة، لكن الرجل طمأنهم وأكد لهم أنهم في أعمار أولاده وأنه ما جاء ليتجسس أو يتبصص عليهم أو يفكر في إلحاق الضرر بأى واحد منهم، بدا لهم صادقا وحنونا فهزوا رؤوسهم بالتتابع علامة الاطمئنان إليه إلى حد أنهم رفضوا أن ينظر أى واحد منهم لبطاقة الهوية التي أخرجها من حافظته وفتحها ليربها لهم قائلا:

- أنا مدرس لغة عربية في مدينة مجاورة فتأكدوا بأنفسكم. لا بد أن ثقة متبادلة نشأت بين العجوز ومجموعة الشباب جعلته يعتدل في جلسته ويتقبل عرض أحدهم ليتناول مشروبا على حسابهم فلم يتردد ونظر للساقى الواقف أمامه ثم قال بخفة:

- لا مانع ... قهوة مضبوط وواحد «جمعج» وصلحه.

وبنفس الإيقاع كرر الساقى عبارة الرجل بينما يتحرك فى نفس المربع . فتضاحكوا بصخب كان يتناقص على مهل حتى جاء الساقى بالمللوب . فتجدد الضحك بينما يتابعون الرجل وهو يرتشف محتويات الفنجان بتلذذ ويزيحه بعيدا ثم يحدثهم :

- فى السابق كانت المهرجانات تقام بواسطة مؤسسات متخصصة إذا كان هناك ما يتطلب التجهيز لها أو الصرف عليها لإسعاد الناس . تقام فى مناسبة قومية أو وطنية أو فكرية للترفيه عن خلق الله والتخفيف عنهم ما دامت مطلوبة ومشروعة . لكن موضوع مؤسسة التوعية والبهجة يختلف ولا يحتمل خلط الأوراق على هذا النحو المستفز لكل من له عقل يفكر . فالوعى مطلوب أولا وقبل أى شىء ويمكن مثلا تغليف الوعى بأغلفة تبعث البهجة فيتم المراد من رب العباد وتصل رسالة التوعية بما يدور حولنا بوعى وخفة خلافا لما يجرى من «مهرجة» تليق بالحواة أو عتاة المهرجين وبهلوانات الموالد الذين شفناهم وشاف هو بعضهم فى صباح ساحات موالد السيد البدوى أو إبراهيم الدسوقى أو السيدة زينب وصولا للحسين بن على رضى الله عنهم .

كان الرجل قد فرض وجوده فاستجابوا والتفوا حوله ليستمتعوا بحيويته وخفة ظله التى لم يتوقعوها من رجل فى مثل عمره . كان من الواضح أنه يتمتع بخبرات جملة حولته إلى بؤرة تتطلع إليها عيونهم بانبهار فباح لهم بما يمكن أن يعتبروه سرا عندما أكد دون أن يطرف له رمش أنه أول من أطلق على «جَعَجَع» اسمه المختصر لكن بشكل مغاير عن زميلهم المجتهد الذى يتمتع دون أدنى شك بخيال خصب حسبما أكد لهم . تبادلوا النظرات فأضاف ليزود دهشتهم :

– اسمحوا لى أن أطلبكم بتأمل ملامحى بدقة . أنا أعرف أنها تبدلت كثيرا، لكن ما حيلتى ؟ الزمن يحفر فوق ملامح البشر خطوطا لا تخطر على بالهم.

تبادلوا النظرات الحائرة وتردد فى معاودة طلبه فتطوع مندفعا ليبوح لهم على مهل وبشىء من الخجل :

– سأريحكم وأكشف لكم هويتى ، لقد كنت أنا المسئول عن مؤسسة «التوعية والبهجة» قبل جعفر عبد رب النبى ، وكنت أنا الذى اختاره ليكون مساعدا لى ، مخدوعا فى تفوقه خلال سنوات الدراسة ، وسوف تستغربون لأنه كان من نفس القرية التى ولدت فيها . وربما كانت بينى وبينه قرابة من بعيد بحسب ما أكد لى .

تبادلوا النظرات بارتياح وربما بخجل أو خشية من عتاب قد ينالهم منه ، لكنه هز رأسه وأشار لعامل المقهى ووجه إليه أمره بكل حنو ليعاود تقديم المشروبات على الجميع قبل أن يواصل . فتحول إلى متآمر ضده على غير توقعاته مستعينا بأعوان يتميززون بالطاعة العمياء من صغار العاملين بالمؤسسة مقابل بدلات حضور لجلسات وهمية وبدلات عن منجزات لم يقم بها أحد ، والغريب أن جمعج استغل ثقة الرجل فيه لأبعد حد . فكان يطلب منه التوقيع على كشوف الصرف موضحا له بأدب جسم أن مكافآت من يعملون فى مؤسسة «التوعية والبهجة» سيزود أهميتها ويضيف لرصيدا حماس من يعملون بها ، كانت المسألة بحساباته خلافا لايفسد للود قضية ، لكن ما كان يجرى فى الخفاء وما أشاعه أعوان جمعج ضده تنفيذا لتعليماته التحتية وضعه فى خانة من يحسنون النية بشكل مبالغ فيه . ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالتريح

وإقالتة قبل تعيين الدكتور جمعج مكانه ، وعلى نحو مباغت وجد نفسه منتدبا على غير إرادته ليعمل مدرسا للغة العربية بمدرسة إعدادية في مدينة نائية . وكيف أنهم تهددوه وتوعده بمصير أصعب لو تشكى أو يبيع بما يسىء لرئيس مؤسسة التوعية والبهجة فيزود غضبه . قال الرجل لهم إنه قال لنفسه أيامها إن الجنازة حارة والميت كلب . طوع نفسه وارتضى التباعد عنه وعن أعوانه ليعيش في مدينة نائية حريصا على أعصابه وعمره ليتمكن من تربية عياله بعيدا عن المهارات الإدارية . ولأنه أدى رسالته نحو أسرته وتلاميذه قبل أن يحال إلى المعاش منذ شهور . ولأنه تخلص من أى تبعية وتحرر تماما أو صار جاهزا في أواخر أيامه لمواجهة الفساد في عقر داره فقد عاد لمدينتهم ليكشف لرواد المؤسسة كيف أنها انحرفت عن تأدية دورها للتوعية والبهجة واتجهت إلى المهرجانات والاحتفاليات التي تقام بمناسبة أو بغير مناسبة مهما تكلفت من الميزانيات ومهما تأكد أنها بلا أدنى مردود علماني أو نفساني محسوس لقلّة روادها بشكل فاضح ، ولأنها لا ترقى لمستوى اللهو المشروع أو غير المشروع في موالد أولياء الله الصالحين حيث يتجمع الناس حول الحواة والمهرجين في ساحات مفتوحة يشغلها سيرك قومي أو أهلي وألعاب أراجوزات وثلاث ورقات للضحك على ذقون روادها بلا رقيب أو حسيب على العكس مما يلزم أن تقوم به مؤسسة وظيفتها التوعية والبهجة . وعندما سأله واحد منهم عن بدايات الأستاذ د . جمعج هز دماغه متفكرا وقال :

– كان مجرد تلميذ شاطر لكنه كان في نفس الوقت نهازا للفرص وعاجزا عن الوصول لشاعر الناس الذين انفصل عنهم بعد حصوله على

الدرجة العلمية وتعيينه معيدا في جامعة عين شمس أولا ثم انتدب للعمل في الجامعة العربية وسافر لجامعة عمان ثم انتهى مشواره في واحدة من الجامعات الأمريكية لتدريس أصول اللغة العربية لمشاريع مستشرقين جدد منشغلين بدراسة مجتمعاتنا على كل المستويات، ولأسباب خفية اختاروه ليرأس مؤسسة التوعية والبهجة، ولعل الكثرة ممن كانوا في المؤسسة وأنا واحد منهم تأكدوا أنه لن يتمكن أن يكون امتدادا على مستوى يساوى أو يقارب مستويات من سبقوه بالجلوس في نفس مكانه على مختلف توجهاتهم بين يمين ويمار ووسط في أسوأ حالاتهم. لكنه سكن المكان واستتب وأبعد كل من اعترض أو قال حتى لروحه إنه لم يحدث أن واحدا ممن سبقوه تربح على المكشوف بمثل ما فعل هو ليسىء لتاريخ مؤسسة راسخة للتوعية والبهجة الوقورة بأساليبه «البرجماتية الفكرية المعاصرة» بتبجح وقدرة على التباهى وهو طالع من تحت السلم كما يشهد كل من عايشوه في طفولته التعسة لكنه تألق وصار يقول بتبجح أنه عبر الخطوط الفاصلة بين ماضيه وحاضره وانقلت ولن يعود للفقراء أو الفقراء أبدا.

كانوا يتبادلون النظرات ويتعاطفون مع الرجل الذى يحكى لهم تجربته وعيناه تجاهدان لمنع دموعه من أن تتساقط فتتساقط ويدعى بينما يجففها بمنديله من تحت منظاره أنه دخان الشيثة أو السجائر يغزو عينيه الموجهتين بحساسية ضد كل أنواع الدخان. يشعرون بالتعاطف معه ويظالبونه بنسيان الموضوع وقد تحول اسم جعجع في ذلك المساء إلى رمز لزيادة الهم المعاش.

كتبت صحيفة مسائية قليلة التوزيع أن أ.د. جعفر عبد رب النبي طالب جميع من حضروا آخر مهرجاناته بأن ينهلوا من علوم الدول المتقدمة وثقافات العالم وتفتح عقولهم والانفتاح على الدنيا بأسرها قبل أن يفوتهم قطار التقدم، لكن رجلا عجوزا فى سن المعاش قاطعه قائلا إن أبواب بلادنا مفتوحة بشهادة التاريخ المكتوب والمروى من أيام الفراعين والبابليين والآشوريين وأهل الشام وفلسطين والسودان القدامى ومن عاصروهم من جيران الواحات والصحارى المسكونة. وأن حكاية العالم الذى تحول إلى قرية واحدة مشكوك فيها، ثم أضاف بأن الدنيا محكومة بالأقوياء ما تزال وأن الارتقاء فى أحضانهم ليس مشاركة بل تبعية مكشوفة، وذكر محرر التحقيق كيف حاول أنصار أ.د. جعفر عبدرب النبي إسكات الرجل بالإشارة لكنه واصل كلامه واتهم مسئول البهجة والتوعية بأنه مجرد تابع أمين أو غير أمين. كان لكبر الصوت فى ركن القاعة مفاتيح فصلها أعوان المتهم بالتبعية فتاه صوت الرجل وأمسك جمع بيمينه سماعة أخرى جالسا فوق المنصة الكائنة فوق مستوى الرواد القلائل وغالبيتهم من أعوانه، تنحنح فخرجت نحنحاته صافية من مكبر الصوت القادر على امتصاص صوت الرجل العجوز لتجبره على السكوت، وبعد النفخ والزفير طالب مالك المكان من الموجودين فيه الصمت وحسن الاستماع، كان العجوز يشيح بيديه وكل بدنه ويهذى بصوت عاجز عن الوصول لأسماع الحاضرين غضبانا ومحتجا على نحو غير مفهوم بينما يجلجل صوت أ.د. جعفر عبد رب النبي ببراعة خبير ليحول المعارض حسبما قال إلى مندفع كاره للسلام الدولى. وبكل أدب ونعومة وبرود أعصاب يشرح للحاضرين ما يدعم وجهة نظره:

- الرجل كما هو باد لكم عجوز متهالك فى سن المعاش وقد كان لسوء الحظ ممن يعملون فى نفس مؤسستى . لكنه خان الأمانة واختلس من عهدته وعهدة زملائه فتولت إدارة الشئون القانونية التحقيق معه ، ولولا تعاطفى بشكل إنسانى لرفعت أمره للنيابة الإدارية والجهاز المركزى ومباحث الأموال العامة أو المخبرات العامة ومباحث أمن الدولة والمدعى الاشتراكى مثلا وغيرها وغيرها من أجهزة المحاسبة وتوقيع الجزاءات لكنه تباكى وقبل أيا دينا فعفونا عنه ونقلناه ليعمل مدرسا بعيدا عنا . لكنه عاد بعد خروجه للمعاش ليكذب ويكذب ويكذب فلا تصدقوه .

هتف العاملون فى المؤسسة مع ضيوفها الوافدين بحياة أ.د. «جعجع» وشكروه على إنسانيته الفياضة وتعاطفه مع كبار السن فى زمن تتردى فيه الأخلاق ، كان فى القاعة واحد من الشباب الذين التقى بهم الرجل فى المقهى فى تلك الليلة العجيبة وكان يهز دماغه ويفكر أنه لا بديل من اللجوء لمنظمات حقوق الإنسان ووكالات الأنباء العالمية ، وفى الأيام التالية نشرت عدة تحقيقات صحفية عن عجوز اختفى تماما وكأنه كان خيالاً أو وهما تجسد ثم تبخر بعد مواجهة عابرة مع مسئول مؤسسة التوعية والبهجة ، لكن أ.د. جعجع وجدها فرصة ليرد فى عدة حوارات صحفية بأنه لا يعرف عن أى عجوز يتحدثون ولا هو مسئول عن مصائر البشر من رواد مؤسسته وهم آلاف مؤلفة ، وعلى شاشات التلفاز كان يطل باسمها أو ساخرا . متمكنا ومتماديا فى الهجوم على من يتجاسر ويفكر فى توجيه أى اتهامات وضيعة مخفية بين سطور تحقيقات صحافة صفراء بارعة فى الابتزاز . وبدا لناس المدينة أن المسألة من أولها لآخرها لعبة خالت

عليهم أو سيناريو محبوبك يهدف إلى تزويد مساحة الكتابة في الصحف عن مؤسسته إلى جانب أنه يطل عليهم كل يوم من شاشات التلفاز بطلعته البهية ليؤكد للناس في كل مرة أنه مشغول مشغول مشغول وأن مؤسسته تخسر وجوده فيها لترتيب احتفاليات أو مؤتمرات جديدة بدلا من الرد على مثل هذه الحماقات من حزب أعداء النجاح الكارهين والمتآمرين مؤكدا أن لديه مفاجأة كبرى سوف تخرس كل الألسنة وسوف يظهرها في الوقت الذى يراه مناسباً، لكن شيئاً من هذا لم يحدث أبداً إلى حد أن الناس تشككت أن وراء هذا السيناريو الممطوط كذبة كبيرة أو مجموعة أكاذيب، لعل البعض قال للبعض إن الرجل لم يكتف بمؤسسته الفاشلة وتسلط من خلال الصحف والتلفاز على عقولهم ووعيهم وذاكرتهم في نفس الوقت فقرر البعض مقاطعة الصحف والمجلات واتفقوا على عدم فتح أجهزة التلفاز فى أوقات البرامج التى تستضيفه ليقول نفس العبارات بنفس الإيقاعات بلا كلل أو ملل، ولعل الرجل العجوز الذى اختفى فى ظروف غامضة تاه من ذاكرة الناس وما عاد هناك من آثاره غير دعابة متكررة ينطقها سقاة المقاهى فى محاولة لإضحاك الناس عندما ينادى الواحد منهم زميله قائلاً :

- واحد شاي مع « واحد جعجع وصلحه».



## المؤلف فى سطور

ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس - دبلوم تمهيدى  
ماجستير ١٩٦٨ - جائزة الدولة التشجيعية ووسام الدولة للفنون من  
الطبقة الأولى عن مجموعة «النبش فى الدماغ ١٩٨٥  
عضو اتحاد الكتاب نادى القصة/أتيليه القاهرة /جمعية الأدباء/ نقابة  
السينمائيين جمعية مؤلفى الدراما.

سافر ضمن وفود الأدباء لتمثيل مصر فى :

الصين / السعودية / العراق / ليبيا / اليمن.

صدر للكاتب :

- دائرة الانحاء «مجموعة قصصية» ١٩٧٠ هيئة الكتاب.
- الناس فى كفر عسكر «رواية» ١٩٧٩ هيئة الكتاب.
- النبش فى الدماغ «مجموعة قصصية» ١٩٨١ دار المعارف.
- مدينة الباب «مجموعة قصصية» ١٩٨٣ هيئة الكتاب.
- كشف المستور «مجموعة قصصية» ١٩٨٤ دار المعارف.
- الحنان الصيفى «مجموعة قصصية» ١٩٨٧ هيئة الكتاب.
- حكاية شوق «رواية» ١٩٩١ دار الهلال.
- البحر الرمادى «مجموعة قصصية» ١٩٩٣ هيئة الكتاب.

- حكايات المندش «رواية» ١٩٩٦ دار الهلال.
- نصف الساعة السعيد «مجموعة قصصية» ١٩٩٦ قصور الثقافة.
- المنام المراوغ «مجموعة قصصية» ٢٠٠٠ دار زويل.
- النبش فى الدماغ «مجموعة قصصية» ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة.
- الأعمال الكاملة «المجلد الأول» ٢٠٠٠ هيئة الكتاب.
- ملاعيب الأكاير «مجموعة قصصية» ٢٠٠١ مركز الحضارة.
- الحنان الصيفى «مجموعة قصصية» ٢٠٠١ مكتبة الأسرة.
- الأعمال الكاملة «المجلد الثانى» ٢٠٠١ هيئة الكتاب.
- إبداعات التفرغ «المجلد الأول» ٢٠٠٢ المجلس الأعلى.
- رسام الأرناب «مجموعة قصصية» ٢٠٠٢ قصور الثقافة.
- خطافة العيال «مجموعة قصصية» ٢٠٠٢ هيئة الكتاب.
- الناس فى كفر عسكر «رواية» ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة.
- إبداعات التفرغ «المجلد الثانى» ٢٠٠٣ المجلس الأعلى.
- مواسم الشروق «قصص روائية» ٢٠٠٣ الكتاب الفضى.
- عرض مجانى للجميع «مجموعة قصصية» ٢٠٠٤ قصور الثقافة.
- أعمال أحمد الشيخ «رواية و ٤ مجموعات» ٢٠٠٦ هيئة الكتاب.
- حكايات المندش ٢٠٠٨ هيئة الكتاب.
- أرضنا وأرض صالح «رواية» ٢٠٠٨ روايات الهلال.
- كلام مساطب «قص قصائد» ٢٠٠٩ قصور الثقافة.
- الناس فى كفر عسكر «رواية» ٢٠٠٩ ط ٥ هيئة الكتاب.
- هوامش المدينة «رواية» ٢٠١٠ هيئة الكتاب.
- سداسية كفر عسكر هوامش/ وأرضنا ١١٠ إبداعات التفرغ

## وفى مجال الكتابة للطفل صدرت له :

- عسكرى الشطرنج الأبيض ١٩٩٠ هيئة الكتاب.
- نخلة حازم ١٩٩٢ دار المعارف.
- نخلة حازم - ط ٢ ١٩٩٦ - ط ٣ ١٩٩٨ دار المعارف.
- غياب الكلب الأبيض ١٩٩٣ هيئة الكتاب.
- القط الكسلان - ط ١ ١٩٩٤ - ط ٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- أم الخير - ط ١ ١٩٩٤ - ط ٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- الجاحظ - ط ١ ١٩٩٤ - ط ٢ ١٩٩٧ دار المعارف.
- الخطوة الأولى ١٩٩٥ هيئة الكتاب.
- العصفور الأخضر الترجمان ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة.
- «الأشياء فى عيون الصغار» - مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٠
- فنجان الشاي الصينى - البيت الصغير
- القلم النشيط - عسكرى الشطرنج
- المكنسة القديمة - كتلة الخشب
- الأقلام الملونة - مجموعة الكراسى
- فارس من الأبنوس - الحطاب
- الساعة الحمقاء - نطاظ الساعة المستعجل
- المقص المخدوع - دبوس إبرة
- الكرة الحمقاء - الفارس والدمية
- قالب الثلج البردان - التمرة والنواة

## الفهرس

- مقدمة..... ٥
- ١- جيوب الكفن ..... ٧
- ٢- صحوة خلية حية وحيدة..... ٢٣
- ٣- طلوع روح صباح العيد ..... ٣٤
- ٤- غفوة غفلة وبعدها صحوة ..... ٤٣
- ٥- انكسار الخواطر..... ٦١
- ٦- لعبة فى المنام ..... ٧٢
- ٧- السعار ..... ٨١
- ٨- الابتلاع ..... ٩٢
- ٩- المتوحدان ..... ١٠٠
- ١٠- شريط الوصايا ..... ١٠٨
- ١١- مهرجة المواطن جمع العاشر ..... ١١٧
- ١٢- المؤلف فى سطور ..... ١٣٢

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢٦٣٥
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7727-0

١ / ٢٠١٢ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف ( ج.م.ع )